

كتاب الهلال

شاعرة الطليعة

عائشة

تأليف

فقيدة الشرق

الآنسة مي

سلسلة شهرية

تصدر عن دار الهلال

العدد ٦٨

٨

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٦٨ — ربيع الثانى ١٣٧٦ — نوفمبر ١٩٥٦

No. 68 — November 1956

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

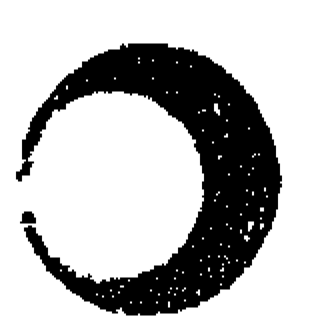
كتاب الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) — مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا — سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش صاغ — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إهـــــــداء ٢٠٠٩

المرحوم الدكتور/ محمد فتحي أحمد محمد سيد

جمهورية مصر العربية

شاعرة الطليعة

عائشة تيمور

تأليف

فقيدة الشرق

الآنسة ميّ

[illegible]

دار الهلال



عائشة تيمور

مقـــدمة

فى سنة ١٩٥١ ، اشترت سلسلة كتاب الهلال من ورثة فقيدة الأدب الآنسة مى هذا الكتاب «عائشة تيمور» لتنشر بين كتبها . وكانت مى قد نشرت بعض فصول هذا الكتاب فى مجلة المقتطف سنة ١٩٢٣ كمحاضرات ألقتها عن هذه الشاعرة فى دار « جمعية فتاة مصر الفتاة »

وقد اجتمعنا بورثة الآنسة مى فى دار الهلال وسلمونا الفصول المنشورة ، والفصول الاخرى بخط هذه الاديبة الفقيدة . واعتزمنا نشر هذا الكتاب فى ذلك الحين ، الا أن الفرصة لم تكن وقتئذ متاحة ، فشغلنا بتقديم غيره من كتب السلسلة ، وأجلنا نشره الى فرصة اخرى

ولما نشرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية ديوان « حلية الطراز » للسيدة عائشة تيمور ، قدمت له بفصول لطائفة من الاديبات والادباء ، وشاءت الا أن تنشر تلك المحاضرات التى نشرتها المقتطف دون الرجوع الى ورثتها . وهى جزء من هذا الكتاب ــ وان كنا علمنا أنه لم يطبع من « حلية الطراز » الا عدد محدود لايسمح باطلاع الكثيرين من القراء على هذا الاثر النفيس ، كما ان مانشر فى مقدمة الديوان ، لم ينشر ككتاب ، بل كمحاضرات

ولهذا فاننا نقدم لقرائنا كتاب الآنسة مى عن هذه الشاعرة الكبيرة كما وضعته هي كتابا كاملا ومؤلفا تاما ، قد نقل عن خط هذه الاديبة النابغة بعد ما أدخلت عليه بعض التعديل والتهذيب

ولابد هنا من كلمة عن تاريخ كل من الشاعرة والكاتبة ، ليقف القارىء قبل قراءة هذا الكتاب على ماينير له الطريق فى حياة كل منهما بالاجمال :

فأما الشاعرة ، فهى السيدة عائشة عصمت تيمور بنت اسماعيل باشا تيمور بن محمد كاشف تيمور . وقد ولدت سنة ١٢٥٦ الهجرية الموافقة ١٨٤٠ الميلادية بمدينة القاهرة من والدة جركسية الاصل . وقد بدأت حياتها بتعلم فن التطريز ، فاستحضرت لها والدتها ادوات لتعليم هذا الفن ، ولكنها كانت تميل بفطرتها الى تعلم القراءة والكتابة . وقد آنس منها والدها هذا الميل ، فأحضر لها اثنين من الاساتذة احدهما ابراهيم أفندى مؤنس ، وكان يعلمها الخط والقرآن والفقه ، والآخر يدعى خليل أفندى رجائى ، وكان يعلمها الصرف والنحو واللغة الفارسية . وبعد ما أتمت حفظ القرآن الكريم تاقت نفسها الى مطالعة الكتب الادبية وفى مقدمتها الدواوين الشعرية حتى تربت عندها ملكة الادب . ثم رأى والدها أن يستحضر لها بعض فضليات السيدات اللاتى اخذن قسطا وافرا من اللغة والادب العربى ، ولكنها تزوجت من السيد محمد توفيق زاده نجل محمود بك الاسلامبولى بن السيد عبد الله الاسلامبولى كاتب ديوان همايونى بالاستانة ، وكان ذلك فى سنة ١٨٥٤ الميلادية وعمرها اربعة عشر عاما ، فتفرغت للشئون الزوجية ، ثم

تاقت نفسها الى الادب والعلم ، فاستحضرت لنفسها سيدتين لهما المام بالنحو والصرف والعروض احداهما السيدة ستيتة الطبلاوية ، والثانية تدعى السيدة فاطمة الازهرية ، فأخذت عنهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره ، وأحسنت قول الشعر

وقد تعلمت اللغة التركية ، التى أخذتها عن والدتها ووالدها ، ووضعت فى الشعر ثلاثة دواوين باللغات العربية والتركية والفارسية ، وألفت فى النثر كتابين هما : « نتائج الاحوال » و « مرآة التأمل فى الامور » وستقرأ عن هذين الكتابين للآنسة مى فى هذا الكتاب . وقد توفيت السيدة عائشة تيمور فى ٢ مايو سنة ١٩٠٢ فى سن الثانية والستين

▭

أما الكاتبة الآنسة مى واسمها « مارى زيادة » فقد ولدت بالناصرة بفلسطين فى ١١ فبراير سنة ١٨٨٦ الميلادية ووالدتها السيدة « نزهة معمر » فلسطينية ، من مدينة الجليل . أما والدها « الياس زيادة » فهو لبنانى نزح الى الناصرة يعلم فى احدى مدارسها . وقد تعرف بالسيدة نزهة وهى سيدة فاضلة كان لها حظ من التعليم والثقافة ، تحفظ ديوان بن الفارض ، ومئات الابيات الشعرية عن ظهر قلب

ولما شبت مى وبلغت السادسة دخلت مدرسة الراهبات اليوسفيات فى هذه البلدة ، وقد ولد لها أخ لم يعمر طويلا ، فعاشت وحيدة أبويها تستمتع بأجمل العطف والحنان

ولما بلغت مى الثالثة عشرة من عمرها ارسلها والدها الى « مدرسة الزيارة » فى عينطورة بلبنان . فبقيت فيها الى

سنة ١٩٠٤ حين أتمت فيها دروسها ، ثم انتقلت الى مدرسة الراهبات اللعازاريات فى بيروت

وفى سنة ١٩٠٨ رغب والدها فى الهجـرة الى مصر ، فسافرت هذه الاسرة الصغيرة ، وأقامت فى القاهرة . وكان لابد لمى أن تساعد والدها فى العيش ، فاختيرت معلمة لاولاد الثرى الكبير ادريس بك راغب . وقد توطدت الصداقة والمودة بين هذا الثرى والاسرة المهاجرة ، فاهدى الى والدها جريدة المحروسة ومطبعتها ، وهى الجريدة التى انشأها سليم النقاش ثم باعها لعزيز الزند ، فانفتح أمام الأسرة باب رزق جديد

وفى سنة ١٩١١ نشرت مى كتابها الاول « أزاهير حلم » وهو مجموعة شعر لها باللغة الفرنسية . وقد اطلع خليل مطران على هذه الاشعار فكتب يقول :

« قرأت أزاهير حلم ، فتمثل لدى قفص من الذهب يتحرك فى داخله ، وينتقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبى ليفلت من قيود اسلاكه ، وينطلق منه الى الجو الفسيح ، لانه لايطيق الاحتباس ولا يقدر ان يكون سجينا فى مكان ضائق بأمانيه فى الحياة » !

وقد نشرت « أزاهير حلم » بامضاء مستعار هو « ايزيس كوبيا » . وايزيس اسم زوجة اوزيريس ويرمز الى مارى . أما كوبيا ، فهو ترجمة زيادة باللاتينية . ولكنها بعد نشر هذا الكتاب لم ترتح الى هذا الاسم المستعار ، وكانت قد حضرت محاضرة للسيدة لبيبة هاشم فى الجامعة المصرية فى ربيع سنة ١٩١١ عن حرية المـرأة ، فلاحظت ان بعض

الحاضرات يتلهين بالهمس والمزاح عن الاستماع الى المحاضرة، فغضبت لذلك . ولما عادت الى بيتها كتبت أول مقال لها بالعربية فى جريدة المحروسة فى انتقاد هذه الحال . ولم تشأ أن توقعه بالاسم « ايزيس كوبيا » واختارت ان توقعه باسم عربى ، فنحتت من اسمها « مارى » اسما مستعارا هو « مى » يشتمل على الحرف الاول والاخير من اسمها فاشتهرت بهذا الاسم ..!

وكانت أول سلسلة أدبية خرجت بها على الجمهور فى صحيفة يومية هو « يوميات فتاة » . وكان لهذه اليوميات اثرها فى الانتباه الى اليقظة النسوية ، وضاعفت من نشاط المرأة العربية . فلما زارت ضهور الشوير بلبنان فى صيف ١٩١١ احتفى بها الادباء والاعيان ، وأقيم لها «كوخ» على « جبل مرحاتا » تذكارا لهذه الزيارة . وقد بنى هذا الكوخ من خشب الغصون وسقف بالاعشاب اليابسة وسمى الكوخ الاخضر لانها جللت جدرانه بالنسيج الاخضر من الداخل ، وقد حنت عليه من الخارج الاغصان الخضراء ، وأحدقت به الخضرة من كل جانب

وقد افتتح بحفلة ترأسها الامير قبلان ابى اللمع رئيس الادارة ، وألقت هى أول خطبة لها ، قالت فيها :

« لو علمت ان الاحتفاء بى وحدى مجردة ، لحبس الخجل كلمة الشكر على شفتى ، ولاختلجت يدى وهى تحمل الكأس ، ولكنى أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر فى فتاة ، وأعظم من ان توجه الى فرد . وانما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموما التى تقولون لها فى شخصى

ان فى الشرق روحا جديدة ، تطلب نهضتها وان عيونكم ترقبها ، وقلوبكم ترعاها منتظرة ماينم عن رغبتها فى النهوض أو عن مجرد ميلها اليها ، لتمدوها بالقوة والتنشيط الممكن »

□

وفى سنة ١٩١٣ زارت لبنان ، فألفت خطبتها الثانية فى « عيد العذراء » .. ولكن الحفلة التى ضاعفت من شهرتها فى مصر ولبنان هى حفلة تكريم خليل مطران تحت رياسة ولى عهد مصر فى ذلك الحين وبحضوره ، وكانت حفلة رهيبة لمى فى سنها الناشئة . ولكنها تغلبت على رهبتها وألقت فيها كلمة جبران خليل جبران التى كانت بعنوان « الشاعر البعلبكى » ثم ألقت بعدها كلمتها فى تكريم هذا الشاعر الكبير ، فنالت اكبر الاعجاب . ومن ذلك الحين انطلقت شهرتها الواسعة كخطيبة واديبة وكاتبة ، فكتبت المقالات اللامعة فى الادب والاجتماع والنسائيات ، وألفت عدة كتب بلغت اثنى عشر كتابا . وكان لصالونها الادبى مقام مكين بين كبار الادباء وشيوخ الشعر والنثر ، فقد كان يجتمع فيه كل ثلاثاء فى منزلها بشارع مظلوم باشا فوق جريدة الاهرام طائفة من الاعلام كالاستاذ أحمد لطفى السيد ، والاستاذ خليل مطران ، واسماعيل صبرى باشا ، والدكتور شبلى شميل والاستاذ أنطون الجميل ، والاستاذ داود بركات ، والاستاذ ولى الدين يكن ، والاستاذ مصطفى صادق الرافعى ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، ويعقوب صروف ، ومصطفى عبد الرازق وأمثالهم . وكانت مى زهرة هذا الصالون التى تفيض بالذكاء والرقة . وقد اشتهر عنه

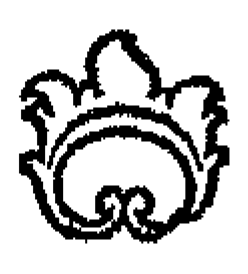
هذا البيتان اللذان قالهما المرحوم اسماعيل صبرى حين بعث بهما اليها وهو فى السفر :

روحى على دور بعض الحى حائمة
كظامىء الطير تواقا الى الماء

ان لم أمتع بمى ناظرى غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وقد مرضت مى فى أواخر حياتها ، ثم لم تلبث طويلا حتى فارقت هذا العالم فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ والحرب العالمية الثانية ، تشغل الناس بأهوالها عن هذه الخسارة الادبية الكبرى

طاهر الطناحي





الآنسة مى

الفصل الأول

البارق في الظّلام

بقلم الآنسة ميّ

دعتنى جمعيـــة « فتاة مصر الفتـــاة » دعوة كريمة الى القاء محاضرة على أعضائها فى الجامعة المصرية • فوعدت • وخطر لى أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية غنية ندرسها معا • فتعرض لنا فى سياق البحث موضوعات جمة فى الاخـــلاق والادب والاجتماع نمحصها قدر المستطاع ، بينا نحن نرسم من المرأة صورة شيقة . فنسجل للحركة النسائية فى هذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات ، ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعا

وما خطر لى ذلك الا وصـــحبه اسم شـــجى يحيا دواما بزفراته الحارة المنغومة • زفرات تناقلتهـــا الاصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطا جميلا حين كانت صورة المرأة سديما محجوبا وراء جدران المنازل وتكتم الاستئثار

وبرغم ذلك أنشأت انقب فى تاريخ المرأة المصرية • وكنت كلما دققت نمت « التيمورية » فى ذهنى وتفردت صورتها أمامى اذ لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبهها ولو شبها بعيدا • ونظرت الى بعينيها المجهولتين المرمدتين باثة حسرتها ، باكية شجوها ، مهمهمة لى فى خلوتى أبياتا كثر أمثالها فى ديوانها « حلية الطراز » حيث تقول :

حيى الرفاق وصـــف للحى أشـــواقى

وحـــــدث الركب عن تسكاب آماقى

قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما
لواعجا كحميم أو كغساق
أسال حر الهوى قلبى وأبرزه
جفنى على يد آماقى وأحداقى
هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهب
وفى التنفس من آثار أحراقى

فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها ، وجمعت من المعلومات عنها ماتيسر ، وفكرت فى نشر بحوث عنها . وكان يدفعنى الى ذلك :

أولا ـ ان لعائشة فضل المتقدم بيننا وهى طليعة اليقظة النسوية فى هذه البلاد

ثانيا ـ ان الجمهور يعرف انها « شاعرة » دون أن يلم بما تتكون منه شاعريتها ، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها أو يحلل ميلا من ميولها

ثالثاـ ان النظرة فى مقدرتها انما هى اكتناه للذات المصرية ليس من الجانب النسوى فحسب بل بوجه عام . وسنرى بعد التحليل ان لعائشة مكانتها بين أدباء عصرها وليس بين الاديبات الشرقيات وحدهن

رابعا ـ انها من عمال دولة القلم عاشت فى وحدتها كثيرا ، وأعطتنا فى شعرها ونثرها صورة مؤثرة . أمارأيها فى الحياة فحقيق بالانتباه والتبصر لأنه رأى جمهور كبيرمن الشرقيين والشرقيات كان شائعا فى زمانها وليس بالنادر فى أيامنا هذه

خامسا ـ ان مثل هذا البحث يرافقه سرور متضاعف • أليس أن جميع طبقات الناس تلذ لها الروايات ، وهى انما تمثل حياة أشخاص وهميين ،؟ فكيف بحياة أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كل مايعانيه أبطال الروايات، هم الذين توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا فى سبات واستكانة ! وكم من نابه قضى تاركا آثاره فاكتفينا بالثناء عليها وعليه ثناء النائحات على كل ميت ، فظلمناه فى مماته بعد أن كان مظلوما فى حياته ! فلم نستجل من آرائه رأيا ولم نحلل من العوامل التى كونته عاملا

كلا ، لم نحلل بعد رأيا ولم نستجل عاملا لأننا مازلنا فى هذا الفن الجليل أطفالا • نظرة الى مايكتب عن ثمرات المطابع عندنا ترينا (مع استثناء صغير) اننا نقابل الكتب الجيدة بأحد الانواع الثلاثة التالية

الاول ـ أن نغفل ذكرها اغفالا حتى وان كانت عنوانا قيما ليقظتنا الفكرية ، وخطوة واسعة تستدعى الاعجاب والاغتباط • ولا يبرر هذا الاغفال حتى ولا الاعتذار بأن الجمهور يتطلب الآن موضوعات معينة لايرضيه سواها • لأن هذا الجمهورر المتهم هو هو الذى يبتاعها ويستهلك طبعاتها • فكيف يجد متسعا من الوقت لمطالعة كتاب بكليته ويضيق وقته وصبره دون قراءة سطر عنه ؟

النوع الثانى ـ هو اما مرقة دهنية لزجة مزجت فيها مواد الثناء والمدح والاطراء يطلى بها ذكر الكتاب دع عنك كونه صائبا أو غير صائب • واما تقريظ بالاستعارات المألوفة التى لم تعد تعنى شيئا يختم (كما تختم جميع

الصلوات بآمين) بكلمات لامفر منهـا مثل « حث الجمهور على اقتناء هذا السفر النفيس » أو « التمنى أن يصادف هذا الكتاب الشيق النافع مايستحقه من الرواج والانتشار »

أما النوع الثالث الذى أرادوا أن يطلقوا عليه اسم «النقد الحديث» فهو نقيض «التقريظ» العتيق. ويفكهنى أن أتخيل أحيانا أن جميع اصطلاحات الثناء والاطراء « أضربت عن العمل » هى الاخرى لحين ما فتكأكأت فى مكان واحد متماسكة متجمدة ، ففاجأتها قنبلة تائهة فافرنقعت متطايرة أشظاظا ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة « العصريين » قذفا وطعنا وتهجما

ومما يؤسف له أن من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرة كبيرة ، لو هو أنال مقدرته ماتقتضيه كل موهبة من التثقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية ، فتذكر أن نقده ليس بالبلاغ العسكرى يعلن الاحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الاسقفى يحرم عضوا من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين، ولا هو بأمر « المعلم » القروى (على الطراز القديم) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته كما ينبغى فحظر عليه أن يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفس بغير سماحه. كلا . ليس النقد بشىء من ذلك . ان هو الا نظرة فرد معرض للخطأ فى عمل فرد آخر معرض للخطأ يختلف عنه ميولا وتأثيرات وكفاءة ووراثة . واذا كان الادب واجبا فى الخطاب الشفهى ، فهو فى الخطاب الكتابى أوجب . وأول مظاهر الادب هو التهيب أمام شخصيات الناس لكونها شخصيات انسانية فحسب ،

فكيف بها اذاهي بذلت مجهودا ما ، وكانت ذات ميزة علمية، أو فنية وأخلاقية ؟

ان ألزم مميزات الناقد هي العطف • لست أعني العطف بمعنى الاغضاء والتساهل واعتبار العيوب والنقائص حسنات وكمالات • وانما أعنى عكس التحامل والتعنت ليتهيأ له التجرد من ذاتيته تجردا موقوتا يتسنى معه الدخول فى حياة المنقود شاعرا معه ، متوجعا لحاجته ، مراعيا عادات بيئته ومطالبها ، خاضعا لجميع مؤثرات المحيط ، طالبا لحين غايته من الحياة • والا فكيف يدعى انه فهم المنتقد عليه؟ وان لم يفهمه فكيف يكون رسوله الينا ؟ كيف يجرأ امرؤ على تحويل حاجات الناس الى حاجته ، وحصر عقلياتهم فى عقليته ، وسجن قلوبهم فى قلبه ، وقياس أحوال حياتهم بمقياس حياته ، ثم يأتينا بحكم يزعمه هو نهائيا بلانقض ولا ابرام ؟ الا أن ذاك هو الهاجي وليس بالناقد • هو المتصلب وليس بالفنان • هو الذى يتجاهل ان النقد لايقوم باظهار العيوب (وجميع الناس بارعون فيه) وانما هو احكام التمييز والتعليل ، شأن المصور فى توزيع الانوار والاظلال على مايجب أن تكون فى اللوحة الواحدة

أعلم أن بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين ، ولكن ما يأتونه من ضروب الطعن والنهش لم يقنعنى بأن العصمة فى جانبهم ، ولم أر فى احكامهم سوى رأيهم الخاص ليس الا •• وهذه الصورة التى أرسم من التيمورية انما هى نظرة فردية فى طبيعتها ولا زعم لى انها صورة مطلقة • وأتمنى أن تتنبه الرغبة فى معرفتها فى نفس كل من شاء مسايرتى

فيدرسها معي متصفحا روحها ، راسما لذاته صورة منها خصيصة • فان الحرية الفكرية هي مانتعم به والله الحمد • وبها سيبقى الانسان كبيرا نبيلا وان كان في سواها عبدا ذليلا

▭

وقد أحصيت الاسباب العمومية لدرس الشاعرة ، ولكن لدى سببا آخر ، وهو مقابلة معنوية جرت لى معها منذ حداثتى القصوى

كان ذلك فى تلك البلدة بفلسطين وقد بدآ الحى متجليا ببهجة الاعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السرى • ونصب صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة • فما يخيم الظلام الا وتعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألق الانوار ومعالم الزينات ، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

اذ ذاك يهرع أهل الحى الى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الشائعة فى الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ماجاور من جبال الجليل • والاطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافىء ويحميهم من أهوال الظلام ، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الالحان

كنت على ذلك فى ليلة فاذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينك أم صبغ من الرحمن

جفن من السحر أم سحر من الاجفان

خال بخـــديك أم صـــنع من الديان
توهت فكر الانام فى الجفن والخالات(١)
تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذ بل بكل قواى الكامنة التى سينميها المستقبل وبكل ما فى الايام التى عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء. ولعلى استشعرت ببعض ما سأفهمه بعـدئذ من نجـوى الموسيقى الشرقية ... تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنه يعلم أنه يحتاج الى السعادة التى لم يفز بعـد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر سنا مما يظنان ، وتقول للقوى الظافر انه ضعيف مدحور، وتقول لكل أحد ان حياته كانت الى هذه الساعة خاليـة سـخيفة قحطاء . تقول له ان فى الدنيا أمورا لم يختبرها وان جهله لهافقر وضنك وذل وعبودية وموت سبق الموت . تقول ان الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصـير سريع العطب ، وان كل لحظة يجب أن « تعاش » بأكملهـا ليستخرج منها أقصى ماتكن . تقول ان القلب روى بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليه ليتفجر كصخرة موسى... واذ تنطلق الأصوات سـابحة كالاجنحـة فى فردوس من الالحان ، ثم تصبح متفجعة منتحبـة ، ثائرة ، عاصفة تلج وتتمادى يخيل ان الفزع قـد جوف تحتهـا هاوية تترامى فيها الأصداء المرتعشة . فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن

(١) كذا فى الاصل . اما أنا فأذكره كما كنت أسمعه « توهت فكر الانام بالعين والحاجب »

والراحة فى سحر الحب وذوب الحنان ... ولكن العمر قصير سريع العطب ، وكل ما فيه موسوم بوسمه ... ولكن الحياة مراوغة فى استقامتها ، شحيحة فى كرمها ، وكل مافيها كريم شحيح مراوغ مستقيم ...

هذا بعض ما قاله لى فيما بعد شهيق الاوتار، فهل فهمت منه عندئذ شيئا ؟ لا أدرى . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذى لم يكن أحد يعلم ما اذا كان جمال عينيه كحلا أم صبغا من الرحمن! ذاك الشخص الذى تاهت به أفكار الناس فتجمهرت لتهتف: تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أتتصورون أثر هذا الرسم فى مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفى نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة زاهية فى الافق الازرق ؟

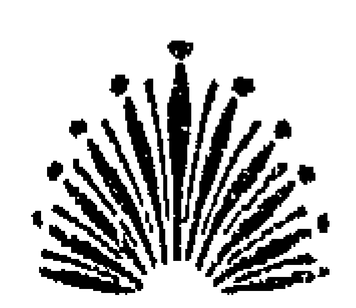
٥

ولطالما سمعت هذا « الموال » بعدئذ من منشد بن أصوليين وغواة يقبلون عليه اقبالهم على جميع الادوار المصرية المشوقة . ولكن أكانوا يعلمون من هى شاعرته ؟

أرجح أن تلك كانت نشوتى الموسيقية الاولى . فأبقت فى أثرا ، كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهنى . وما تبينت تلك الاشارة الا عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك « الموال » فيه . فأدركت أنها حدثتنى منذ زمن بعيد تلك الروح التى غاصت نفثاتها الحزينة الطروبة فى أرواح المنشدين فحبست على أوتارهم ألحانا ، وانطلقت على أمواج الهواء فنا وتغريدا وابداعا . وهكذا تلك المرأة التى وقعت

زفراتها فى وحدة خدرها وراء الحجاب ، صار الشجن والطرب منها فعالا تتناقله أجواء الاقطار وتتأثر به ليالى الافراح فى نازح الديار

كذلك برقت التيمورية فى تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزا لنور آخر خطير • ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة فى ليل دامس من الجهل • فجاءت بارقا يبشر المرأة المصرية ومستقبلها



الفصل الثاني

عصر الشاعرة

الحياة الفكرية والاجتماعية

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجرا ما برح ينتشر ويعمم حتى شمل بنوره نهضة التجدد الكبرى . وما تولى الا وقد جاء بحادثين بدلا حظ البحر الابيض المتوسط وحظ مرافئه فى الحـركة التجارية والعمـرانية . وهما اكتشاف فاسكو دى جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد ان شق كولمبس البحار وصولا الى الاقطار الامريكية . وبينا التطور يتتابع فى الغرب حثيثا سواء فى العلم واسباب المواصلات وامتزاج الشعوب والصـناعة والتجارة والثروة والحرية الفردية والكرامة القومية ــ كانت مصر ، وقد حرمت من مرور تجارة الشرق ، تتقهقر ببطء حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلت ثلاثة قرون يحكمها بالاسم ولاة عثمانيون وتدفع الجزية السنوية الى تركيا الا انها تعثو فيها تلك الفئة الطاغيـة من المماليـك « البكوات » . ففشت فى انحائها الخزعبلات والاوهام ، واشتد العوز مهددا بالامراض والمجاعات . والدول التى تتنافس الآن فى اكتساب صداقتها كانت قد نسيت حتى الوجود من هذه البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها العريقة ، الفريدة بموقعها الحربى المنيل النفوذ السياسى والرواج التجارى لجمعه بين القارات الثلاث وسيطرته على طريق المشرقين

أى عجاجة لاتثير أعمال الرجـل العظيم ! هبط نابليون الشرق يستغله ويقيم عليه الركن الاول من عرش اراد ان يخيم ظله على الشرق والغرب جميعا • فهبت الدول تقاتل الجبار وتتحالف لهزيمة جحافله . وصار القطر المهجور محجة الغايات لان البطل ادخله فى خريطة اطماعه

جاءت القوة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاتفت والحملة الانجليزية فى الرحمانية فزحفتا معا على القاهرة . فسلم الفرنسيون نهائيا فى سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتـلال بثلاثة أعـوام دون جنى اية فائدة حربية . وكم من عمل يؤتى فى سبيل غاية تفشل ، فاذا به موفور العائدة لغاية اخرى !

فقد أسفرت الاغارة الفرنساوية عن ثلاث نتائج الاولى قومية • اذ شعر المصريون بأهمية بلادهم وبمقدرة الشعب على ازعاج الحكومة المستبدة اذا هو اتحد وتضامن . كما لمحوا وميضا من المدنية الاوربية الحديثة ورغبوا فى اقتباسها

الثانية علمية ــ اذ استصحب نابوليون جماعة من العلماء الاخصائيين . فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها ، وادخلوا الطباعة ونشروا الصحف وأسسوا « المجمع العلمى المصرى » وجاءوا فى مختلف الموضوعات بابحاث قيمة ، منها وصل البحر الابيض بالبحر الاحمر الذى سيستفيد منه دلسبس واحدثوا اصلاحات كثيرة ذهب جلها انما بقى منها جرثومة ستنمو بعد الآن على يد حكومة البلاد

الثالثة سياسية ــ ان بين ضباط القوة العثمانية كان ذلك الرجل الذى ولد هو ونابليون وولنجتون فى سنة واحـدة « ١٧٦٩ » وحكم مصر بعد محوه للمماليك ••• وبين رجال

محمد على رجلان يختلفان أصلا وعملا أحدهما كردى وهو محمد تيمور بن اسماعيل بن على كرد ، الذى كان ضابطا وساعد فى استئصال دولة المماليك حتى صار من خاصة الوالى . فترقى فى المناصب من كاشف ، الى محافظ ، وتوفى سنة « ١٢٦٤ هـ ». « ١٨٤٧ م » والآخر تركى الاصل وهو عبد الرحمن افندى الاستانبولى الذى كان كاتبا فى الديوان الهمايونى عند السلطان سليم الثالث ثم صار ذا مكانة عند محمد على حتى انه بعد وفاته دفنه فى القلعة . وكان لسلالة هذين الرجلين ان تحمل علامة اليمن . فقد تزوج محمد تيمور بابنة عبد الرحمن افندى فكانا جدى الشاعرة

ولدت عائشة سنة ١٢٥٦ الهجرية قبل وفاة محمد على بتسعة اعوام ، وتوفيت بعد تولية عباس الثانى بعشرة اعوام أى انها شهدت تطور بلادها على عهد أربعة ولاة هم محمد على وابراهيم وعباس الاول وسعيد ، وثلاثة خديوين هم : اسماعيل وتوفيق وعباس الثانى

كان لمحمد على مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها فى الداخل بانشاء المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية ، وتنظيم الجيش وتخريج الاطباء ، ونشر المعارف وارسال البعوث الى اوربا لتتلقى العلوم الفنية والميكانيكية والحربية ـ . اما فى الخارج فكان يؤيد مطامعه بالحروب والفتوح

وتتابع التطور ضئيلا خلال ولاية ابراهيم التى لم تدم

سوى شهرين اثنين ، وولايتى عباس الاول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصورا فى تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش . وان امتاز عهد سعيد بأمور ذات شأن ، منها وفاء ديون الحكومة ، وحذف الجمارك الداخلية والاحتكارات ، وارجاع الحرية الفردية وحق الملكية الى الفلاحين ـ بعد ان كان محمد على قد جمع الاملاك بين يديه جاعلا الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج . وتم فى عهد سعيد انشاء القناطر الخيرية التى بدىء بها بامر من محمد على . وسعيد هو الذى فوض الى صديق طفولته ديلسبس أن يباشر حفر قناة السويس

بيد أن الاندفاع الاكبر جاء فى عهد اسماعيل فعاد الى معالجة مشروعات محمد على مرسلا البعثات الى اوربا ، موجدا المكتبة الاهلية ومتحف الآثار المصرية ، حافرا الترع للرى ومجملا المدن الكبيرة

وأصدر امرا فى أواخر عهده يعلن رغبته فى أن يحكم بواسطة مجلس نظار ، بعد أن كان اصدر امرا بتشكيل مجلس نواب تأخذ الحكومة رأيه فى ما تسن وتحور من النظم والقوانين وكان كاهل مصر قد اثقل بالديون مما ادى الى قبول الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . فقام يوما ينكر على الموظفين الاوربيين حق التدخل فى شئون بلاده . فحملته الدول اثر ذلك على التنازل لولده توفيق تحت الرقابة الفرنساوية الانجليزية فيما يتعلق بالمالية

وقامت الثورة العرابية مطالبة ـ فيما طالبت به ـ بالغاء الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . وكان ما كان من احتلال انجلترا وتفويضها الى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع

وتنفيذها فى مصر . وبعد توقف القطر عامين استطرد فيه التنظيم والتقدم بحيث تمكن القاضى المفكر قاسم امين ان يقول فى رده الفرنسوى على الدوق داركور :

« ان الحرية التامة سواء فى التفكر والكتابة اصبحت مباحة ، وان المصرى يتمتع الآن بكل ما ضمنه الاعلان الشهير من « حقوق الانسان » . وان « الجميع يتوقون الى العلم ويتعلمون معتبرين ان هذا هو السبيل الوحيد للنهوض . منذ ثورة عرابى انتبه الشعب المصرى لمكانته وكرامته . استنار ذهنه فجعل يهتم بنظام الحكم وبالشئون العامة يقدرها ويحكم لها او عليها . وبالجملة فان مصرا تيقظت بالفعل » (١)

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ : ولما توفيت عائشة بعد ثمانية اعوام كانت حركة التطور فى ازدياد وقد اضيفت اليها عناصر فتية متنوعة

□

أهى يقظة الفكر عند الافراد تهيىء اليقظة القومية ام هى يقظة الجمهور ومطالبه والاحوال المحيطة به التى تخلق الافراد وتحبوهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة ؟

أظن ان التفاعل هنا محتم كما هو فى كل امر آخر . فالافراد يخلقون الجمهور والجمهور يخلق الافراد . لان القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها ، فاذا انتبهت

Les Egyptiens (1)

احداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبت متجددة نابضة ، مبدعة . كأنها الصوت الواحد يحدث هزة فى مكان من الهواء فتتناقله الموجات المسارعة حتى يرن فى اقطاب الفلك جميعا

ولكن يخيل انه قبل تنفيذ اى عمل يقتضى رسم خريطة خيالية جلية فىالذهن الناضجالصافى . خريطة من الخرائط التى يسمونها المتهكمون « نظريات » . وهـذه النظريات التى تثنى لذكرها شفاه العلميين هى من الاهمية بحيثان الطبيعة لا تجمع عادة (وان فعلت نادرا بشذوذ جميل) بين مقدرتى النظر والعمل فى شخص واحد . اذ ان لكلمنهما صفات تنافى صفات الاخرى . يهىء النظـريون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سـواهم بعين النقـد والتمحيص مستخرجين منها ما لاءم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئا محسوسا يستخـدم ويخـدم . كانما هى « المثـل الافلاطونيـة » التى بموجب نظريتها لا تكـون المحسوسات الا انعكاس افكار كائنة فى ذهن الاله الاعظم . تلك هى حـكاية التلغـراف اللاسـلكى التى ابتدأت مـع مكسـويل وهرتز وبرنلى نظـريات وتعـديلات علميـة ، فصارت مع ماركونى عاملا آليا تعنو له مجـارى الهـواء فى نقل الافكار . وتلك هى حكاية الغواصات التى كانت فى كتب جول فرن الفرنسوى رؤى واخيلة علمية . فبسط اديسـن الامريكانى لوزارة بحـرية بلاده امكان انشـائها فى تقرير نسخه الالمان سرا ، وسيروها خـلال الحرب مدنا متحركة تخفر البحار وتصـادر سفن الاعـداء وسفن من كان لهمواليا وظهيرا . وتلك هىحكاية الثورة الفرنساوية

اعدها الكتاب والمفكرون ، والثورة الروسية التى مهد لهـا الروائيون والشعراء سبيلا

□

وانتحت الحياة الجديدة فى مصر هذا النحو . فانه الى جانب التحسين الزراعى والحربى والميكانيكى والمـدرسى ، ظهرت حركة اخرى راودها الغموض فى البدء انما جعلت تتسع وتنجلى مع الايام . نشـأت عن تواصـل الاحتكاك بمدنية الغرب سواء بواسطة النزلاء المقيمين فى هذه الديار ، وبعوث الشبان العائدين من اوربا وقـد تطعمت نفوسهم بجـديد النزعات وحـديث الآراء ، وجمـاعات خـريجى المدارس المصرية وقد سرت اليهم عـدوى الفكر العصرى خلال ما تلقنوا من الدروس الاورباوية . وقدم مصر جماعة من نوابغ السوريين واحرارهم النازحين اثر النكبات فكان صـدم افكارهم بافكار المصريين جـزيل النفع للفـريقين وللفكر العربى عموما .

بلغت تلك الحركة اشدها فى عهد اسماعيل وقد بـدت ادبية اجتماعية بعد ان كانت ميكانيكية علمية ، يمتـزج فيها استيحاء الجديد وتجديد القديم . الاستيحاء بالاطلاع على مؤلفات الاجانب ونقل ما تيسر نقله منها الى العربية . والتجديد باعلاء شأن روح اللغـة . اذ كانت يومئذ آلات مطبعة بولاق الاميرية والمطابع الاهلية الاخـرى تشـتغل لاعادة نشر مؤلفات «المدرسين» من كتاب الاسلام وعلمائه الاقـدمين . وكثرت الصحف حتى بلغ عـددها السـبعة والعشرين فترتب .

« على نشر اغراض عامة فى تلك الجرائد ومباحث علمية وادبية فى صحيفة روضة المدارس وتخريج نوابغ من طلبة مدرسة دار العلوم على يد استاذهم المرحوم الشيخ حسن المرصفى واستفادة بعض النبهاء من طلبة الازهر بطول اختلاطهم بالمرحوم الشيخ جمال الدين العالم العصرى حين ذاك ، سلوك سبل اخرى فى الانشاء تستمد منها الاقلام . فعوضا عن الاشتغال بكتابة التهانىء او البشرى بمولود او التأسى على مفقود او المدح او الهجاء اوالعتاب او الاستعطاف او التغزل بالغيد والغانيات او مكاتبة الاصحاب والاحباب والرجاء والاعتذار التى هى من الاغراض الخصوصية مالت الاقلام الى الكتابة فى حب الوطن وما يستلزمه من خيرالعمل والحث على الفضيلة والتباعد عن الرذيلة وحق الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم وغير ذلك من شرح حكم عالية هى من الاغراض العمومية . كل هذا كان اعظم مرشد للمطلعين عليها حتى ترتب على ذلك تغيير عظيم فى الاساليب الانشائية وفى الحركة الفكرية وفى الشعور بالذاتية » (١)

ذكر هنا امين باشا سامى ذلك الرجل الشرقى الشبيه بفلاسفة الماضى كسقراط وسواه الذين لم يكتبوا وانما ارسلوا تعاليمهم ضمن المحادثات العادية . وكانت اهم المحافل الفكرية هى الحلقة التى تعقد حول جمال الدين « فى القهوة التى قرب قهوة البورصة القديمة » « ولعل تلاميذه لا ينسون فى مستقبل الايام ان يحيوا ذكره بينهم فى ذلك المكان » . هذا رأى الدكتور شبلى شميل الذى

---

(١) أمين باشا سامى فى كتابه « التعليم فى مصر »

عرف الافغانى وجالسه وناقشه . ويتابع الحديث عنه قائلا :

« لم يكتب فيما أعلم شيئا (١) وانما يلقى على آخرين مقالات ضافية تنشر فى جريدة مصر (٢) تحت اسمائهم . ولولا الشيخ محمد عبده يده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه فى صدور اكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم اذا كانت كل تعاليمه حديثا يلقيه بحسب مقتضى الحال » . « وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الاخصاء واعماله محصورة فى دائرة مريديه . واما جريدة مصر فكانت سببا كبيرا لاذاعة صيته ونشره فى الآفاق » . « ولم يتهيأ له ان وقف خطيبا فى قوم الا مرة واحدة اظهر فيها انه خطيب مفوه ايضا . وكان ذلك بمسعى اديب اسحق وفى تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين . فالقى خطبة اجتماعية سياسية ابدع فيها معنى ومبنى وجرأة وبقى يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون ان

(١) يعنى أن جمال الدين لم يكتب بيده مقالات للصحف المصرية . الا انه انشأ فى باريس « العروة الوثقى » التى أصدرها بالاشتراك مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده . وتوفى عن كتابين احدهما تاريخ الافغان والآخر نقد للفلاسفة الماديين نقله عن الافغانية الشيخ محمد عبده ايضا

(٢) يعنى جريدة مصر التى كان يصدرها سليم النقاش وأديب اسحق ثم ألغيت ورخص لهما باصدار جريدة « المحروسة » محلها

يبدو ادنى تعب او يتلعثم حتى خلب العقول واقام الناس واقعدهم » (١)

جاء الافغانى مثالا محسوسا لتفاعل الافراد والجمهور . اذ رأى ببصيرته النافذة ما يحرك نفوس اخوانه من العوامل المستفزة نفسه ، دون ان يهتدوا الى كيفية التلخيص والافصاح . فتكلم فيهم بلغته « الممزوجة ببعض لكنة اعجمية تنم عن اصله الغريب وانما وقعها على الاذن كان محبوبا (٢) . تكلم فيهم بفصاحته النارية فكان له اليد الطولى فى تحريض الافكار واضرام الثورة العربية . فهو زعيم الناقمين فى ذلك العهد ، هذا الافغانى الذى أرسلت شعلة روحه الشرر من افغانستان ، الى بلاد فارس ، الى وادى النيل حيث مر كتيار لفاح .

شعر الفكر المتغير المتكيف بوجوب تبديل استاره والتجلى بزي يوافق صورته الخفية فكان ذلك التطور فى نتاج القرائح والاقلام من شعر ونثر ، وان كان فى الشعر أسبق أما فى النثر فأوضح . وظهرت مع الشعر الفصيح ضروب من الشعر العامى كالمواليا التى لم يأنف معالجتها نفر من كبار الشعراء . وتجدد « الزجل » الطلى . وأما وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية فمال الناس معها الى احكام المعنى واخراجه من معمعة السجع والجناس والاستعارة والتورية . وبديهى انه لم

---

(١) ننسخ هذه النبذة من فصل للدكتور شميل نشر فى مجلة «الزهور» (فى ديسمبر ١٩١٢) التى اقتطعت ذلك الفصل من مجموعة مذكرات قالت ان الدكتور كان يومئذ يشتغل بوضعها باسم « حوادث وخواطر »

(٢) الدكتور شميل نقلا عن الفصل المذكور فى « الزهور »

يفلح فى ذلك أولا غير النفر اليسير ، وتفرقت من الآخرين الطرق . فتحدى بعضهم أسلوب الاقدمين من صدر الاسلام او من صدر العباسيين . وتسربت الى اسلوب غيرهم ركاكة لغة الدواوين التى لم نخلص منها حتى فى هذه الايام . ولعل أقرب الاساليب منالا هو اسلوب الصحافة التى كانت وما زالت عندنا ميدانا للعلماء والشعراء والادباء ، وقد تحتم عليها التوفيق بين مختلف الاذواق والكتابة بلغة يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا فى ذلك تاريخ أغر . وما فتىء التحسن يبدو عليها من عام الى عام وهى عامل كبير فى رفع فكر المجموع، وربما كانت العامل الاكبر لانها العامل الاشمل .

□

واذا كانت الحالة الفكرية والاجتماعية فى تفاعل مستديم ، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية ؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ أكان يصل اليها صدى الخارج ؟ أكانت تشتغل ارقى بلادها فى دائرة الاسرة وتدرك معنى المطامح القومية ؟

هاك شبه جواب عن هذه الاسئلة عند امين باشا سامى الذى يخبرنا انه فى عصر محمد على كان الاهالى

« عقبة كؤودا فى طريق تعليم بنيهم . غير أنهم لما تحققوا ان تعليمهم فى تلك المدارس ومكثهم بها ينقل حالة ابنائهم الى حالة أرقى من التى انتشلوا منها تحققت الرغبة عندهم » .
« اما تعاليم البنات فلم يصادف تسهيلا فى عصره حتى اضطر الى اصدار امره الى حبيب افندى فى ٤ جمادى

الثانية سنة ١٢٤٧ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٣١ م) (١) بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن ينتخبن بمعرفة كلوت بك لتلقي فن الولادة ومعهن اثنان من اغوات الحرم يتعلمان فن الطب والجراحة » (٢)

كانت عامة الفتيات تتعلم التطريز وأشغال الابرة سواء فى بيوتهن أو بالتردد على المعلمات القبطيات وغيرهن . ومنهن من يتعلمن القرآن على فقيه البيت . ونفسى تحدثنى أن ذلك الفقيه كان ينطبق عليه وصف صاحب مذهب « هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد » .

ليأخذن التلاوة عن عجوز
من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح
ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن
اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير
يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه
ولمته من المتثغمات (٣)

□

أليس هذا قد كان رأى اكثر الاهل فى معارف البنت وفى الذين يتولون تعليمها ؟ بيد أن السيل متابع مجراه

---

(١) أى قبل ولادة عائشة بتسعة أعوام
(٢) « التعليم فى مصر »
(٣) « اللزوميات » لابى العلاء المعرى

والوفود الاوربية ترد أفواجا ومعها البعوث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات . فانشئت مدرسة راهبات الراعى الصالح فى شبرا منذ ١٨٤٤ ، وتلتها مدرسة الامريكان للبنات بالازبكية سنة ١٨٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الايطالية سنة ١٨٥٩ . وبينا مدارس الجوالى تتكاثر فى أنحاء القطر أسست مدرسة البنات بالسيوفية سنة ١٨٧٣ (ولم يسبقها من المدارس الاميرية سوى مدرسة الممرضات والقوابل منذ عهد محمد على) . وهى المدرسة التى تعرف اليوم بالمدرسة السنية . وتلتها مدرسة القربية سنة ١٨٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها . وكان عدد المدارس للبنات والبنين فى ازدياد سريع حتى انشىء منها فى حياة « عائشة » ما يقارب الالف من مدارس اميرية ومدارس تابعة لمجالس المديريات وأهلية وأجنبية عدا المعاهد الدينية والكتاتيب

بيد ان المرأة لم تكن وصلت الى دور تثقيف نفسها . بل كانت راتعة فى انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منه النفس ويعتل اذا هو انتقل الى حيث الهواء نقى . وانما هى الاقلية المتنورة من الرجال التى كانت تطلب فى الزوجة شريكة وصديقة ، وللابناء التربية المنزلية الصالحة ، وللبيت ذلك الجو المفرح الذى تخلقه المرأة بعذوبة حبها اذا هى قرنت بالحصافة والمعرفة . وكان أولئك الرجال يتشاكون الغم فيم بينهم وليس من يقتحم مصادرة الرأى العام . حتى انبرى قاسم لا يبالى بتطعين الحراب ، هادئا كمن جس مقاتل الخصم وتسلح بصارم الحق واليقين . .

الحياة المنزلية

نحن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فى مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية قبل ان تبدل معالمها يد الهدم والبناء . وقبل ان تصقل بعض جوانبها يد التحسين الجديد . مدينة شرقية توالت عليها نوائب التاريخ واختلطت فيها اجناس الشعوب وهى لسرها الطويل كتوم توزعت فى مختلف الجهات منها البقايا الاثرية والجوامع البديعة الفائقة على الثلثمائة ، والحمامات والاسواق و « السبل » المرمرية المقدمة ماءها العذب لكل ظمآن يرتوى وفوق المدينة الجاثمة ترتفع المآذن بقاماتها الهيفاء فيخيل احيانا ان الانسانية أعلت هياكلها فى الهواء الازرق ليس ليصل صوت المؤذن الى المؤمنين على مسافة بعيدة فحسب ، بل ليكون المبتهل فى صلاته اقرب الى باريه واوسخ فى الثقة بالاستجابة . وطورا تبدو تلك المآذن كأنها حراب أرسلتها ايادى الاسلام تنبىء الجائب بانها على دوام الاستعداد لدفع الطوارىء عن الدمار .

فى الشوارع والساحات تبصر اخلاطا من الثروة والفقر ، اناسا يرتدون الاثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء ، وآخرين يرتدون الاطمار البالية وعليهم دلائل الذل والشقاء . ولكن « رغم مشهد الفقر والمرض عند الشعب فان شوارع

القاهرة ليست لتوحى الاسف والخيبة اللذين يشعر بهما المسافر فى الآستانة ذات المنظر الفخم من الخارج ، المحزن فى الداخل . نعم ان اكثر هذه الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة الواحد فى الآخر كأنها مجاهل التيه ، يعترضها هنا وهناك ممرات خفية وغاية ما يسع عابرها ان يستسلم لحكمة دابته وثقافتها . على انها نظيفة يتعهدونها بالكنس والرش المنظم . وبدلا من بلاط الاستانة الشنيع وتلك السلالم الحجرية فى غلطة وبيرا ، لا تجد هنا الا ارضا مستوية صلبة تسير فوقها بلا عناء . اما المنازل القائمة على جانبى الشارع فهى فى الغالب اشهق من بيوت عاصمة تركيا واتقن صنعة . ففى كل وقت تبصر العين الواجهة المزخرفة بالنقش العربى ، او النافذة ذات المشبك الخشبى الدقيق الفن الانيق التفاصيل ، فيكاد المرء يغتفر لاجلها الغيرة التى اقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن وتطلع السابلة » (١)

□

كاتب اجنبى يجيئنا بهذا القول لايرى فى ذلك «الحاجز» سوى رمز « للغيرة » . كأن الغيرة من واردات الشرق التى يتفرج عليها الغرب ولا يكابدها . ولكن هلم نقف امام احد هذه المنازل ، أمام المنزل الذى نتطلع الآن نحو الماضى لاجله . هلم نستعين بالخيال حين لاوسيلة سواه ، فنخترق جانبا من الحديقة الحافلة بالورد والرياحين تحت رعاية

---

(١) "De Constantinople a Caire", par Xavier Marmier
وقد كتب هذه الرحلة سنة ١٨٤٥ ــ ١٨٤٦ صاحبها العضو فى الاكاديمية الفرنساوية

الاشجار ذات الظل الوارف . هو ذا الاغا يسير بنا الى دار الحريم حيث تلقانا طغمة من الجواري والخادمات وتدعونا الى الجلوس فى الفسحة الواسعة الموفورة النور والهواء . ارضها تختفى وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة . والمقاعد والارائك تدور فى جوانبها ، تتخللها الطاولات الصغيرة وعليها ادوات التدخين من علب اللفائف واطباق صغيرة للرماد (منافض) . وعلى جدرانها تتألق مياه المرايا العميقة الصافية . وقام فى وسطها خوان كبير من الخشب المموه بالذهب ، تتدلى فوقه الثريا العديدة الشموع المنحدرة من السقف المصنوع من خشب الجوز المجمل بالنقش والزخرف بل هى هبطت من صميم رسم مثل وردة كبيرة تناوب فيها الحفر والتخريم بنتوء مستدير وسيم . فكان النور خلال تلك التخاريم من جهة الى جهة نفيذا .

هذه هندسة اكثر منازل الطبقة العليا ومادونها قليلا فى ذلك العهد وما بعده حتى اوائل القرن العشرين . أما البذخ والترف فى بيوت الكبراء فيبدو فى اتساع الغرف والردهات ، وفى تعدد المقاعد والمرايا ونفاسة الاقمشة والثريات والطنافس . ولا بد من قاعة أو قاعات للاستقبال . على أن السيدات يقابلن عادة فى هذه « الفسحة » فسحة الدار ، كل شهور الصيف الطويلة . وهنا تنعقد اجتماعات الاسرة سواء فى الليل والنهار .

اقتبس هذا الوصف من كتاب الزوجة الاولى لصاحب الدولة حسين رشدى باشا . كانت السيدة فرنسية ووضعت كتابين بلغتها وقعتهما باسم « نية سليمة »

المستعار فوصفت فيهما المجتمع المصرى وعاداته على ما ادركته فى اواخر القرن الماضى . وانما استندت على هذا الكتاب (١) لأن هدى هانم شعراوى التى تفضلت فأعارتنيه مع الكتاب الآخر (٢) قالت لى انه أصدق ما قرات من نوع هذه الكتب فى وصف العادات المصرية ، واكثرها انصافا واقربهـا الى الواقع . واذا أضفنا الى ذلك ان « نية سليمة » عاشت فى ذلك المجتمع وعاشرته وأحبته ، غير ضاربين صفحا عن بطء التطور الاجتماعى ، ولا سيما فى الشرق وفى الايام الخالية ، أمكننا ان نقول ان هذا الكتاب وان انشىء فى اواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيرا الى ما كانت عليه فى ايام عائشة .

فلتكن اذن « نية سليمة » دليلنا

□

هى تقول لنا ان هذه السيدة الجميلة البشوشة التى جاءت مرحبة وجلست على المقعد قربنا هى ربة المنزل . أما أولئك النسوة الجالسات على « الشلت » فهاك خبرهن :

« انهن من المترددات على المنزل وليس لهن ان يجلسن قرب السيدات على المقاعد، وان كن أرفع قدرا من الخادمات الجاثمات على البساط اوعلى الحصيرة » . « هن من الجوارى البيض المعتوقات ومن الجوارى السود اللائى حججن . ومعهن الدلالات بائعات الاقمشة والبضائع . ومعهن المراضع واخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات

---

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte", par Niya Salima

(٢) أما الكتاب الآخر فهو رواية "Les Répudiées" التى طبعت سنة ١٩٠٧ قبيل وفاة المؤلفة

ومن المختلفات الى المنزل لاغراض شتى . يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين او ثلاث على « الشلتة » الواحدة ، ويشتركن فى الحديث ويروين الاخبار » . « اما الزائرات المهمات فتاتين وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ تحضر القهوة التي يستغرق تقديمها من الزيارة زمنا . فالعادة فى الطبقة المتوسطة ان يؤتى بها مصبوبة فى الفناجين على طبق من الفضة . اما فى البيوت الكبيرة فيتعاون فى تقديمها ثلاث خادمات على الاقل : احداهن تحمل الطبق يجلله غطاء مخملى مزركش وقد تهدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين مصفوفة عليه . وتحمل الخادمة الثانية ابريق القهوة فى شبه مجمرة فضية امتلات بالرماد المتلظى . بينما الخادمة الثالثة تصب القهوة ، وتدور بها على الزائرات » (١)

اما الاحاديث فهى طبعا لا تختلف عن المألوف حتى اليوم فى الدوائر النسائية غير المتنورة و .. وربما المتنورة أحيانا . موضوعات لا تنفد مادتها كأنها الماء كلما غالبت فى الاسراف منه زاد تدفقا وسيولا . وتلك الموضوعات هى الولادة ، والخطبة ، والزواج ، والموت ، وخصام الازواج، وخصام العائلات فيما بينها، والثروة ، والاغتياب الخ الخ . ولكن يخيل ان السيدات المصريات لم يكن يومئذ لتنطبق عليهن التهمة التى يحب الرجال أن يلصقوها بالمرأة لأن « نية سليمة » تقول بجلاء انه :

« ليس من الغريب ان يقطع الاحاديث غير مرة سكوت

---

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

طويل وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تجهد ذهنها للاهتداء الى موضوع جديد. فقد حضرت مجالس السيدات قليلات التزاور فيما بينهن يظللن جالسات معا دقائق طويلة ثم يفترقن دون أن يتبادلن كلمات التبجيل المبتذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجمل المهلهلة . فهى تنطوى على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون ان يكون فى ذلك غضاضة او خشية الهزوء والنكتة » . « ثم تأتى زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن ويحذو حذوها الجميع ، فتلقى الواصلات الجديدات التحية ، ولكن ما ادق الفوارق فى أساليب التحية! انهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها « عمتى » . ويقبلن وجنة مثيلتهن فى السن والمرتبة ويدعونها باسم « الاخت » العذب . ويقابلن معارفهن الاقل مؤالفة بتحية «تركية» . اما السيدات الاوربيات فيصافحنهن باليد » (١)

ان اللائى يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن ان وصف صنوف السلام ما زال حيا بحياة الواقع فى ايامنا. ولقد كانت دواما ساعات السلام لى أوقات اغتباط ودرس أتبين فيها العادات الراسخة وأحلل اسبابها ما أمكن ، بيد ان هناك نوع سلام آخر يدخل فى الصنف الثانى الذى وصفته « نية سليمة » الا انه يتجاوزه للافراط فى التودد والتعاطف . وهو ضم الخد الى الخد مرة بعد اخرى وارسال قبلات سريعة متوالية فى الهواء يسمع لها مصيص شائق كأنه تغريد طائفة خاصة من الطير . وفى ما يتعلق

---

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

بالتحية « التركية » او « اللاتوركا » كما يقولون فهى كما تقول « نية سليمة » :

« كم من نبل وكياسة فى التحية التركية وكم تنويعها ميسور ، فاليد اليمنى تنفتح بهيبة وبلا توتر وتستطيل فى تحدر أكثراو أقل بعدا حتى ليصل الى الارض عند الضرورة . ثم ان النصف الأعلى من الجسد الذى انحنى يعود الى التقوم والاعتدال مسايرا حركة اليد التى تدنو من الفم أولا ، ثم من الجبهة دون أن تمسها ، وتركن أخيرا الى موضعها تاركة خلاء فى الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة »

« والوداع يشبه السلام فتماد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها . اما التفصيل الحرى بانتباه خاص فهو ان السيدات اللاتى لا يرين مطلقا ازواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق ان لم يبعثن اليهم بالسلام مع زوجاتهم . وربة البيت لا ترافق زائراتها بل تتقدمهن الى الباب فيتبعنها » (١)

لطيف هذا ! ومعناه المشيعة تسهل لزائراتها السبيل وانها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن او هى تودع معهن شيئا منها . وانى لأوثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طردا وتقتفى أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بانها تخلصت لحين ما من ورطة وجودهن .. !

□

هب ان هذا المنزل الذى زرناه الآن متبينين فيه بعض

---

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

عادات ذلك العهد هو منزل اسماعيل تيمور باشا (١) ، وان تلك السيدة ربة البيت التى رحبت بنا هى والدة عائشة ، « وهى جركسية الاصل معتوقة والدها اسماعيل تيمور باشا » (٢) فأين عائشة الصغيرة نفسها ؟ أين الشاعرة العتيدة التى نلتفت اليوم الى معالم الامس لننال لمحة من حجر نعمتها وما فيه من خطوط الفتها فكان هيكل زفراتها وهديلها ؟

الا فاعلم ان عائشة اليوم بنية صغيرة لا تحضر مجالس « السيدات » ولا تختلط بالزائرات الا لتقبل ايديهن ان كن من صديقات والدتها وقريبات اسراتها . واذا شئت ان تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها مع اختيها .

اسماعيل تيمور باشا

أمها جركسية الأصل

---

(١) لقد هدم المنزل الذى ولدت وشبت فيه عائشة كما هدم المنزل الذى سكنته بعد زواجها . وقام على آثار كل منهما ابنية جديدة

(٢) « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور »

الفصل الثالث

النشأة والزواج

نشأة الشاعرة

مع أختيها ؟ اذن بين فتيات ثلاث متقاربات سنا ، متماثلات حالا ، كيف لنا ان نهتدى ألى ضالتنا ؟ لو عرفنا صورتها امرأة لاستدللنا بملامحها المتركزة لنتبينها الآن بين أختيها لاعبة لاهية ــ او هادئة رصينة كما كان وما زال كثيرون من الشرقيين يريدون لأبنائهم جاعلين حداثتهم شيخوخة ، مكبلين منهم البداهة على نوع ما فيحرمونهم مرح الطفولة الهنيء وذكريات الغفلة ونعومة البال . الا ان الشخص الوحيد الذى فى وسعه ان يطلعنا على تفاصيل معيشتها ، أعنى شقيقها الجليل احمد تيمور باشا (١) يفوته من حياتها قسط وافر . لانه ولد قبل وفاة والده بسنة (١٨٧١) يوم كانت عائشة فى الحادية والثلاثين ، تعيش زوجة واما فى منزلها بعيدا عن دار والدها . لذلك رغم كل ما نلقاه عند احمد باشا من الاستعداد لتلبية السائل ، فانك لتراه أحيانا يتوقف عن الجواب ريثما يراجع تذكاراته ، ثم يقول ، ببسمة الاسف : « والله ما اعرفش » .

بيد انى فزت منه بهذا الوصف الظريف فى ابهامه .

---

(١) كان لعائشة أختان احداهما توفيت فى حياتها وقد رثتها فى « حلية الطراز » ، والاخرى منيرة هانم تزوجت من على باشا آصف وتوفيت بعد وفاة الشاعرة .

« كانت لا طويلة ولا قصيرة ، لا بيضاء ولا سمراء ، لا سمينة ولا نحيفة » . اما عطوفة ادريس راغب باشا الذى رآها فى حداثته فى زيارة والدته فطنت هانم حرم اسماعيل راغب باشا (١) فقد رد على استفهامى بقوله : « مش فى بالى تمام كانت ازاى ، لكن كانت حلوه والله » . كذلك بعد مرور اعوام ، وقد تقدمت عائشة فى السن ، رأتها حرم شعراوى باشا تزور الزوجة الثانية لوالدها محمد سلطان باشا (٢) . وقالت لى : ان كل ما تذكر منها انها « كانت ست كدا الاتوركا » . مفهوم انها لم تكن « الافرانكا » !

ولكن اظننا بلا دليل ولا علامة قد نعرفها بمجرد الاستسلام لهدى الفراسة . ان آلتى ترجح على اختيها بمثل ما رجحت عائشة لا بد ان تحوى ملامحها منذ الصغر شيئا يختلف عما يرى فى وجه عادى الصغار . فنحب ان نتصورها طفلة دمثة فى العاشرة من عمرها ، تنضح شفتاها المتوسطا الحجم بطلاوة العاطفة وشوق المحبة . شفتان تهمان بالافترار لتذوق المستطاب المستساغ من طعوم الحياة جاهلتين ما وراء ذلك من حنظل وغسلين . ونحب ان نتخيل فى العينين القاتمتين من معانى الشجن وغزارة العواطف ما يتفق مع معانى الوجوم واللذاذة فى الثغر . ونكاد نرى تينك الشفتين تختمان

---

(١) تقلب راغب باشا فى المناصب وكان وزيرا غير مرة وانتهى بان كان رئيسا لمجلس النظار . ويظهر أن الاغا الحالى لحرم ادريس باشا كان عند التيمورية فى حياتها

(٢) محمد سلطان باشا الرئيس الاول لاول مجلس نواب مصرى

بالخط اللطيف البارز بدقة كأنه حفر حفرا ، الذى يرى فى شفاه اهل الفن والذوق ، وفى شفاه بعض الشعراء . كأنه يشير الى الاوزان التى سيضبط توقيعها العواطف المستفيضة الشاردة ، ويقتنص الزفرات الملتهبة المتدافعة ليسبكها فى ما يظل منضدا على القرطاس نظيما ، ويظل على شفاه الطروب من الناس شاديا .

□

من اين جاءت هذه الصغيرة بميلها المبكر الى الكتب، وبوراثتها الشعرية والبيانية ، وميل جدها جلى لحمل سلاح الجندى دون سلاح الكاتب ؟ امر لا تتيسر معرفته ، الا للذى اطلع على ما يجهله كبير الاسرة الحالى، احمد تيمور باشا ، من تاريخ التيموريين قبل الهجرة الى مصر . بيد ان المعروف عن والدها انه كان راغبا فى العلم والادب . فألف كتاباً ضمنه خلاصة مطالعاته محاكيا به « سفينة الراغب (١) ووضع لأسرته تاريخا باللغة التركية كان فى نية السيدة عائشة ان تنقله الى العربية (نروى هذا عن احمد باشا وقد أخبرته به شقيقته الشاعرة فيما بعد) . وجمع مكتبة نفيسة تشتتت بعد وفاته كما تبعثرت اصول الكتابين اللذين لم يطبعا . على ان لذلك الفاضل اجمل اثر يحمد فى تعليم ابنته والعناية بتثقيفها فى عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف . وان عائشة لتذكره دواما بالشكر والتحنان ، وترثيه

---

(١) مؤلف هذا الكتاب هو محمد راغب باشا تولى الصدارة العظمى فى الاستانة وعاش فى القرن الثامن عشر

بعـــد وفاته بقصيدة ملأى بالعبرات :

أبتاه ، قد حش الفراق حشاشتى
هل يرتضى القلب الشفوق جفائى ؟
يا من بحسن رضـــاه فوز بنوتى
وعـــزيز عيشــــته تمـــام رخائى
ان ضاق بى ذرعى الى من اشتكى
من بعدك فقدك كافلا برضائى ؟ (١)

ليس هذا من مألوف الشكوى والثناء . بل هو كان لهـــا على الدوام نصيرا منذ الصغر فى جهادها ضـــد والدتهـــا التى كانت تحثها على تعاطى اشغـــال الابرة .

ولا يفوتنا اننا الآن ــ فى هذه النقطة من بحثنا ــ ما زلنا ايام كان ابناء العظماء ، حتى الملوك انفسهم ، يتزوجون من معتوقاتهم . ولطالما استهجن كتاب الفرنجة هـــذه العادة ذاهبين الى ان دماء العبيـــد تجـــرى فى عـــروق اكثرية الشعوب الشرقية. وما هى منهم الا نظرة سطحية اذ ليس اولئك الجـــوار دواما من اصل وضيع . فمنهن الكريمات اسيرات الحروب . وقد قذفت حـــرب المورة ، مثلا ، الى مصر بكمية وافرة من بنات اليـــونان . ومنهن الشريفات المخطوفات . ومنهن الشركسيات يبيعهن الاهل مدفوعين بحب الرفعة والتقدم لاولادهم الذين اذا عاشوا فى جبالهم كان حظهم محدودا . أما اذا انتقلوا الى بلاد اخـــرى عن هـــذه الطـــريق فلهم ان يتعللوا باكبر الآمال ويرتقوا اعلى المراتب .

---

(١) « حيلة الطراز »

لست مبررة عمل الاهل ، انما انا شارحة احساسهم نعم ان كثيرين من اولئك الاولاد يحلون بيوتا صغيرة يعملون فيها للخدمة فيجيء الاعتاق متأخرا ، ويكون الزواج فقيرا والجهاز ضئيلا . ولكن الشرع الاسلامى شديد الرفق بالرقيق ، جم العناية بحاله . ثم قد يسعد الصبى فيصير « مملوكا » ألمعيا ، وتصير البنت « هانما » غنية . ولهم ان يحلموا حتى بالعروش .

هذا من جانب الاهل . أما الازواج فلم يكونوا يومئذ ليطلبوا فى المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدى وجودة البنية . فتزيد او تنقص قيمة الجارية بقدر ما تحوز من تلك الخصائص . فيخرجونها على اعمال معروفة كتدبير المنزل ، وأشغال الابرة ، وفنون الرقص والعزف والغناء احيانا . ويربونها على عادات الكبراء وعلى طريقة من الطاعة تتلاقى فيها الانفة والاذعان .

وهناك سبب اجتماعى آخر فى مصلحة الجارية ، وهو كونها بكليتها لعائلتها الجديدة . يقول الظرفاء ان آدم كان أسعد الازواج لان حواء كانت « مقطوعة » فظل حياته فى نجوة من صولات أهلها وجولات أنسبائها . والحق يقال من عيوب المجتمع الشرقى ذلك التطاول المرف الذى يسمونه « وحدة حال » أو « يا سلام ! الناس بالناس ! » . وبه يستبيح بعض الاقارب والانسباء ما كان يجب ان يحجموا ويقفوا دونه . مسلم أن البر بالاقارب حسن ومحمود ، ولكن على شريطة ألا يكون ذلك باعثا على أضرار العائلة وتنغيصها . والا يكون معناه انتهاك

حرمة البيت من ذلك الجيش الجرار الذى تسحبه بعض النســاء الشرقيات كأنه الهدية الواحدة من هدايا العرس المنقلبة ضربة لازب . جيش يصير همه ابتداع الاكاذيب وتلفيق الروايات ، لا سـيما اذا كثر الاختـلاط وظهرت أسباب المنافســة والحســد . وانمــا باعتــدال المعاشرة والاحتفاظ بعــادات كل عائلة ، والســهر على اســتقلالها الداخلى وراحتها وأسرارها يتحقق التفاهم بين الاقارب وتنمو المــودة . اما التطاول والتهجم فمؤديان الى القطيعة حتما وقد بدأ الشرقيون يفهمون ان البنت عند زواجها ثمرة نضجت فسقطت عن شجرتها . فأضحى اول وأجباتها محصــورا فى العائلة الجديدة التى تنشئها ، كما تتقيد البذرة بالثمرة الجديدة التى كونتها تنفيذا لناموس الخليقة . ولقد كان هذا الاســتقلال العائلى ، وتقديس حدود البيت والتفرغ للاعتناء به ، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهنــاء ــ من اكبر عوامل تقدم الامة الانجليزية . كما ان نقيضه فى كثير من الأسر الشرقية من أهم عوامل التقهقر . اذ كيف يتقدم وينجح من كان فى حياته البيتية شقيا !

هذا ما كان ينجو منه زوج المعتوقة . وقد ذكرت « نية سليمة » قول سـيدة مصرية معتوقة انهــا ستبتاع فى الاستانة زوجة لولدها لان « بنات باشواتنا كثيرات الدلال . أريد لابنى زوجة بلا حم ولا حماة لأضمن سعادته » ! (١)

يدرك القارىء والحالة هذه ، ان والدة عائشــة لم تكن

---

(١) كتاب نية سليمة سالف الذكر

تفهم تشبث ابنتها بالكتب ، ويدرك انها كانت تجدها شاذة فتسأل الله عليها صبرا ولها معونة !

□

غير ان الاب الحصيف قريب يسمع ويتبصر . فتقول لنا زينب فواز فى كتابها « الدر المنثور » ان الباشا عندما رأى الجدل متتابعا بين زوجته وابنته تفرس فى هذه النجابة وقال لوالدتها « دعيها فان ميلها الى القراءة أقرب » . وأحضر لها اثنين من الاساتذة وظل يعنى بها فما تمكنت من معرفة الا يسر لها الاخذ باخرى . وتشهد لنا عائشة بفطانة والدها وعطفه فى مقدمة كتابها « نتائج الاحوال » حيث تقول والدتها اذ تراها عاكفة على الكتاب والقرطاس كانت تأتى :

« وتعنفنى بالتكدير والتهديد فلم ازد الا نفورا ، وعن صنعة التطريز قصورا . فبادر والدى تغمد الله بالغفران ثراه وجعل غرف الفردوس مأواه ، وقال لها : « دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، ودونك شقيقتها فادبيها بما شئت من الحكم » . ثم اخذنى بيدى وخرج بى الى محفل الكتاب ورتب لى استاذين احدهما لتعليم اللغة الفارسية والثانى لتلقين العلوم العربية . وصار يسمع ما اتلقاه من الدروس كل ليلة بنفسه . . »

وهى تتبسط فى هذا الحديث فى مقدمة ديوانها التركى والفارسى (١) بكلام مشوق لا سيما انه اهم ما لدينا

---

(١) انى مدينة بترجمة هذه المقدمة الطويلة الشيقة لحضرة الكاتب المعروف محب الدين أفندى الخطيب المحرر بجريدة الاهرام وصاحب المكتبة السلفية . فقد عنى بنقلها رغم أعماله الكثيرة خدمة للادب

لمسايرتها فى نشــأتها . فتكرر القــول ان والدتها كانت تحثها على تعلم التطريز ورأيها « ان هذا المنسج هو اداة النســاء واستاذ المعارف لبنات حــواء » . اما عائشــة فلا تراه الا « كالهم العنيف » . فتتابع :

« وبالرغم مما كان متأصلا فى نفسى من الميل الى تحصيل المعــارف من جهة والحصــول على رضى والدتى من جهة اخرى، فان نفسى ما برحت نافرة من المشاغل النسوية » .

« وكان من دابى أن أخرج دائما الى قاعة منزلنا(السلاملك) فأمر بمن يوجدهناك من الكتاب لاصغى الى نغماتهم المطربة. ولكن امى ــ اقرها الله فى رياض الفراديس ــ كانت تتأذى من عملى هــذا فتقابلنى عليــه بالتعنيف والتهديد والانذار والوعيــد . وتجنح احيانا الى الوعــود اللطيفة والترغيب بالحلى والحلل الطريفة . اما ابى رحمة الله فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركى :

« ان القلب لايهتدى بالقوة الى الطريق المطلوب
فلا تجعل النفس معــذبة فى يد اقتدارك »

« فاحذرى من ان تكسرى قلب هذه الصغيرة وان تثلمى بالعنف طهره ومــا دامت ابنتنا ميالة بطبعها الى المحــابر والاوراق فلا تقفى فى ســبيل ميلها ورغبتهــا . وتعــالى نتقاسم بنتينا : فخذى « عفت » واعطينى « عصمت » . واذا كانت لى من عصمت كاتبة وشــاعرة فســيكون ذلك مجلبة الرحمة لى بعد مماتى

« ثم وجه ابى خطابه الى قائلا : ــ تعالى الى يا عصمت . ومنذ غد سآتيك بأســتاذين يعلمانك التركية والفارســية

والفقه ونحو اللغة العربية . فاجتهدى فى دروسك ، واتبعى ما ارشــدك اليه ، واحذرى ان اقف موقف الخجل امام امك » . فوعدت ابى بامتثال هــداه ، ووعــدته على انى سأبذل جهدى لاكون موضع ثقته ومحققة امله » (١)

فى مناقشة هذين الابوين وتغلب الاب فى النهاية ، أمثولة لكثير من الوالدين فى هذا العصر . فالاهل يقر رأيهم منذ حداثة ابنائهم فى الغالب ، على السبيل التى سيسلكون . فيقولون سنجعل هذا طبيبا ، وذاك محــاميا ، والآخــر مهندســا ، وأخاه تاجرا الخ . ولو هم تفحصــوا الميول والممكنات لربما وجدوا ان المحامى المزعوم لن يفلح فى غير الطب ، وان المهنــدس خلق للتجــارة أو للصحــافة وان الطبيب هيأته الطبيعة لبيع الاثاث القديم فى المزاد العلنى. وهلم جراً . هذا عدا تعويد الولد لباسا وأساليب لا تتفق مع مقدرته المالية ، وبث الاطماع الجــنونية فيــه حيث لا كفاءة ولا حذق يؤهلانه لتحقيق الغايات الكبيرة . كثير من شقاء العالم اليوم راجع لسوء تدبير الأهل . فيصرف الاولاد الأعوام فى تلمس السبيل مجهدين نفوسهم فى نيل ما ليس لهم ، معذبين الآخــرين وكل قلق حائر فى صراع الانانيات لتركيز الحظوظ وتنظيم المعيشة .

أما شاعرتنا فقد نعمت بأب يجمع بين الادراك والمقدرة. فسيرها فى الاتجاه الذى تطلب نازعة عن الابرة التى تكره، والمنســج الذى تقلى ، حتى انهــا لا تذكر تلك الاشغــال النسائية الا بالاستنكاف والاشمئزاز .

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

هنا ملاحظة صغيرة . لان هذا القول عن عائشة سيزيد فى تعميم الخطأ الشائع وهو ان الفتاة اذا هى أحبت الدرس والعلم ، واذا هى برعت فى معرفة أو فن ، رغبت عن اشغال المرأة وترجلت . وأنا اقول ـ وانى لاعلم ماذا اقول ـ ان هذا الا مذهب طائش غبين . انى اعرف فتيات ونساء ينهضن من المسرات الادبية والفنية ، بل ومن أعمق وأعوص النظريات الفلسفية ، الى اشغال الابرة والتفصيل ، بل الى ما دونها من رفو ورتق ، وتدبير المنزل ومزاولة الطبخ . فيجدن فى كل ذلك راحة وسلوى . ويدخلن فى تلك الاعمال الوضيعة شيئا من التفنن محولات ما فيها من خشونة الى ضرب من الكياسة .

كذلك رأى طائش وغبين ذاك القائل ان الاطلاع والعلم « يرجلها » . انها لتتضاعف بالعلم انثويتها . ومن السخافة أن ينعى على المرأة المتعلمة التأنق والزينة واللطف . حتى ان صورة المرأة « المتعلمة » لتكاد تستحضر لمخيلة الناس عجوزا دميمة متصلبة شرسة . ولماذا ؟ أترى الرغبة فى تنوير الاذهان والتوق الى حياة داخلية سامية ، يعنى الزهد فى الدنيا ، والانقطاع عن العالم ، والانفراد للدرس والتحبير شأن الرهبان فى الاديار ؟

ثم أليس من الغريب ان الرجل اذا هو برز فى الشعر او الفن أو الفلسفة ، تأنث بعض الشيء (١) ، بمعنى انه يدق فكره

(١) الاحساس الفنى لا يدل على التأنث ، لان الانوثة وظيفة عضوية . والملكة الفنية تنشأ عن سمو الوجدان . وهى ليست خاصة بالاناث ، بل هى أغلب ما تكون فى الرجال (كتاب الهلال)

وتصقل عواطفه ؟ فكيف تتحور العـوامل التى يتأنث بهـا الرجل فتكون عند المرأة مدعاة للترجل ؟

لا انكر وجود المترجلات بين المتعلمات . والسبب انهن بطبيعتهن كذلك . وقد تجد المترجـلات بين الجـاهلات الغبيات ، كما تجـد بينهن من لا يعنيها امر بيتها ولا المام لها بتطريز او بتفصيل او بتنظيم . شغلها الشاغل الزينة والثرثرة والانتقال من زيارة الى زيارة . وقد تكون كذلك دون ترجل ، وبالعكس . فان لم تهتم عائشة بأشغال الابرة فلانها على غير استعداد طبيعى لها . ولو لم تحب الكتب والكتابة لما زاولت تلك الاشغال ، ولو زاولتها ما اتقنتها . وذلك لم يقلل من عذوبة انثويتها الخالصة .

وعلى كل فلنغبطها على الوصول الى غايتهـا . ولنصغ اليها تخبرنا باختصار كيف انها منذ السابعة من عمرها الى الثالثة عشرة صـار دأبها التزام الانزواء ، « منكبـة على دروسى اجتهد فيها فوق ما كان ينتظر أبى منى . غير ان أبى لم يكن يأذن لى بالخروج الى مجالس الرجال ، وتولى بنفسـه تعليمى كتب البلاغة الفارسـية مثل شـاهنامة الفردوسى والمثنوى الشريف ، واختصنى من ساعتين من وقته فى كل ليلة اقرأفيهما عليه » (١)

هذا الاب الذى يعرف ان يكون استاذا وصـديقا معـا جدير بكل شكر وثناء .

▭

أنت الشاعر ، انت الاديب، أنت الفنان ، أليس انك تذكر من أعوامك الاولى ظرفا خاصـا ، أو مشـهدا جميلا ، أو

---

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى

كلمة محمسة ، أو وجها محبوبا أهاج بلابلك ، ولفتك الى نفسك ، وكأنه وسع فيك افق نور وفتح فى جنانك بركان نار ؟ أليس ان لك ساعة تفتق فيها من نبوغك البرعم الاول ؟

ولعائشة مثل تلك الساعة ! ما هو الباعث فيها على الشعر ؟ هو الوجه الذى تسفر له المرأة المحجوبة : وجه الطبيعة . حنت الطبيعة ذات ليلة على الشاعرة الصغيرة فتولدت فى نفسها الفتية خوالج جديدة ورأت البدر منيرا والليل جميلا ، وكأن لصفحة السماء روحا تحس وتناجى . دعها تلقى علينا حديث وحيها :

« فى خلال هذه المدة كنت انظر فى دواوين الشعراء وأعالج النظم بالاوزان السهلة . وفى احدى الليالى جاءتنى مربيتى بباقة ورد وضعتها فى مشربيتى . وكانت الليلةليلة البدر . ففيما انا امتع ناظرى بذلك المنظر دعتنى امى اليها . فجعلت باقة الورد فى امانة البدر . ثم عدت من عند أمى فوجدت الباقة مبددة فاحزننى ذلك كثيرا .. ووضعت ناصيتى فى كفى واخذت افكر فجادت قريحتى ببيتين من الشعر الفارسى » (١)

الا يحلو لك تيقظ العاطفة على هذا النمط ؟ اتبصر معى تلك الطاقة النضرة فى نور القمر ، والبنية تستعطف البدر لاجل ما تحب ؟ ثم تعود فترى البدر غافلا ، وطاقة الورد مبددة ، وتوسلها وأملها هباء ...

رمز يا عائشة ، رمز الى ما فى الحياة الممتدة امامك ! فلا ما هو موضوع الاعجاب والرجاء ليستجيب ، ولا ما هى

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

نضرة الازهار لتبقى . وانما الانسان هو الذى يشق ويبتهل ويخيب ويحزن. فيؤدى به ذلك الى تجربة مرة، او عاطفة جريحة ، او اختبار قاس !

ذاك وحيها الاول ، وهو منظر ما زال غنى الوحي لقرائح الشعراء ، ومخيلات العاشقين ، بل لجميع القلوب الحساسة . ولكن لنصغى الى بقية الحديث :

« وعندئذ دخل على ابى فرأى ما بى من الحزن وسألنى عن حالى ، فانشدته الشعر وانا فى خجل وحذر . وانما كنت كذلك لان ابى كان كلما رأى فى يدى ديوان شعر يقول لى ــ « انك اذا اكثرت من مطالعة الشعر الغزلى فسيكون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك »

« أما الآن فانه لما سمع شعرى أعاد كلامه الاول وزاد عليه قوله ــ « ان الشعر اذا لم يكن باللغات الثلاث . العربية ، والفارسية ، والتركية ، ــ لا تكون له حلاوة » . ثم قال لى: « اذا اتممت الكتب التى بدأت بها سآتيك بمعلمة تعلمك العروض . وانى اتوسم فيك السرعة فى تعلمه ما دامت عندك هذه الرغبة » . فاجبته بانى قد حصلت على قليل من معرفة النظم باللغات الثلاث . فطلب منى ان انظم قطعة من الشعر . فقبلت ذيله وانزويت فى غرفتى . ففتحت كتاب المثنوى الشريف مستمدة من روحانية ناظمه . وبدأت انظم على وزن شعر الرباعيات الذى مطلعه : عزم ديدار تودار دجان ما » (١)

نظمت هذا الشعر باللغات الثلاث الفارسية والعربية

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

والتركية ، وانشدته والدها . فضمها اليه وقال :

« ان ما فيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستدركينه بنفسك فيما بعد . واذا بقينا احياء الى العام القادم فانى سأدع الكتب التى اقرئك اياها واجعلك تبدأين بقراءة متن (الكافية) » . ولكن لم يحل العام القادم بعد طول الانتظار حتى تقيدت بقيد الزواج » (١)

بهذه الكلمات القليلة ذات الروح الجديدة فى قدمها ، تخبرنا عن نفسها الى حادث الزواج الذى لا تذكره الا بكلمة واحدة . ومن ثم تنتقل فى تلك المقدمة الى الكلام عن ذاتها بعد مرور عشر سنوات على زواجها . اما أنا ، فعند هذه الكلمة الوحيدة التى تغير حياة الفتاة بكليتها ، اقف طويلا واتأمل . وكم كنت اود استطلاع ما شعرت به عندما أبلغت انه تم أختيار ذاك الذى سيكون زوجها . اى عواطف جاشت فى نفس تلك الشاعرة الصغيرة ؟ اى حنان وخوف ؟ أى صبابة واجفال تناوبت على قلب ناظمة القصيدة التى روت لنا الآن حكايتها مع ابيها ، فجعلت هذه الابيات العربية بين الابيات الاخرى من تركية وفارسية :

يا شهى الذات يا حلو اللما
ضاع عمرى فى عسى ولعلما
ان عددت النوح منى طالما
قد جرى دمعى بخدى عندما

ان سقى دمعى الثرى لست الملوم
مذ سقانى العبد مقدور الظلوم

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

ذقت حبا والهوى نار السموم
فاطف زفراتى ، بخلاق السما

مت حرصا فيك ان قربتنى
ودنـا اجـلى اذا ابعـدتنى
ان حرمت الأنس او آنستنى
فعـلى كل جـوابى أينمـا

هذا ما قالته وهى فى الثالثة عشرة قبل انتطلق لعواطفها العنان وقبل أن « يرخص لها رسميا » أن تتخذ لنشيدها موضوعا حيا . فاى الاناشيد تغرد الآن فى القلب الصغير اذ ترقب « وجهه » من وراء النافذة وهو داخـل ؟ واذ ينقلون اليها اخباره ؟ وان تتصوره وتفكر فيه اليوم وهو بعيد ؟ واذ تفكر فى الغـد حين تكون معه ؟ ليتها دونت لنا يومياتها فى ذلك العهد اذن لتمتعنا بتأثرات ولذات بريئـة شهية !

.. ولكن لقد اغفلت الكتب وأسلمت الكراريس للغبـار والسكون ، ولهت التلميذة المجتهدة بتهيئة الاثواب الجميلة الزاهية والحلى المتألقة الغالية. والايام تحدو الايام سراعافى اتمام معدات العرس. ولقداقبل اخيرا اليوم العظيم يوم تنفتح السماء فوق المرأة مرسلة اليها قضاء السـعادة او قضـاء الشقاء .

وهاهى ذى بطلتنا الآن ليست شاعرة بل هى عـروس شعر فى بهجة اعوامها الاربعة عشر ، تنجلى على عرش الصبا والرواء والحب . الامل يزهو على شفتيها ، والتأثر يلهب خديها ، والرغد يبسم فى نظراتها ، ويخـافون عليها عـين السوء فى مهرجان الفرح فيذرون فوقها وحواليها حفنات الملح ، كما تذر فى القاعة حفنات النقود للبائسين .

ها هى ذى تسير فى موكب العرس الى بيت عريسها يتقدمها ثلة من البوليس ، واخرى من الفرسان ، وحملة الشموع والازهار ، والموسيقى الوطنية الشجية بالحان الناى ونقر الطبول . تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الاقمشة ووراءها خط طويل من مركبات المدعوات . ها هو ذا بيت الفرح تخفق حوله الاعلام المصرية الحمراء ، وتلمع بينها عديد المصابيح الملونة .. ها هم وصلوا ، ووقفت مركبتها .. وقد جاء الخاطب يستقبل عروسه ويقودها بيده الى مخدعها وسط جلبة المدعوات ، وتراكض الخدم والاغاوات، والاصوات والزغاريد الممزقة الهواء .

وبينما هى تبدل أثوابها وتخرج الى قاعة الفرح لتحضر دوراً آخر من الرقص والغناء يذهب الزوج الفتى «بزفة» الى الجامع بين أصحابه ، لتأدية فريضة الصلاة . ولكن ها هو قد عاد ، وجاء يقابل عائشة التى تنزل عن درجات عرشها (كوشا) وتقف مرتعشة مسدولة الخمار ، فى انتظار اتمام الطقس المألوف ... الفتى يجثو للصلاة . ثم ينهض ويدنو من الفتاة فيرفع الحجاب وينظر فى وجهها للمرة الاولى ، ويشبك على صدرها حلية ثمينة فتقبل يده شاكرة ويرد هو على هذه القبلة بقبلة على جبهتها . ويلقى بحفنة من النقود الى من بقى حولهما من النسوة فيختفين . ويصعد العروسان الى (الكوشا) فيجلسان فى بهجة الفرح وسرور الاهل والاصدقاء وبعد هذه الليلة تستهل حياة جديدة .

وهنا نترك الشاعرة وشأنها تحيا قصيدة ليست هى نظما ولا نثرا .

بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج الى عالم جديد له ما يرافقه من حرية ومسؤولية ، وما يخالطه من مسرات وغموم ، ولقد كان يشوقنا ان نقف على وقع هذا الظرف الخطير فى نفسها ، وان نستشف اللون الذى بدت لها الحياة به بعد ان اختلفت فى بعض جوهرها عن حياتها فى بيت ابيها .

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطاب الاثر أم مستنكف الخبر ؟ أكانت به محظوظة ام مغبونة ؟

حسن ان نعلم ، بفضل « ألدر المنثور » ، انها « هنالك اقتصرت عن المطالعة وانشاد الاشعار والتفتت الى تدبير المنزل ومايلزم له خصوصا حينما رزقت بالاولاد والبنات » . ولكنا مضينا على تخمين ذلك وان لم نخبر به لانه امر طبيعى .امر طبيعى كذلك ان يسوقها كسواها عباب الحياة اليومية متشابها للجميع بمادته ، وأن تغاير حتما لكل امرىء بتغاير مزاجه وبتفاعل هذا المزاج والاحوال التى تعالجه ويعالجها . أما ما ولده هذا الانتقال فى الشاعرة من خوالج ، أما نسيج شعورها فى تلك الاعوام السحيقة فذاك ما يظل مغلقا علينا لولا لمحات نسترقها فى ما كتبت ، ولولا القليل الذى ترضى ان تلقى به الينا ، فتقول :

« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادى ـ وهى توحيدة نفحة نفسى وروح أنسى ـ قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت أتمتع برؤيتها تقضى يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاقلام ، وتشتغل بقية يومها الى المساء بابرتها فتنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لهابالتوفيق شاعرة بحزنى على مافرط منى يوم كنت فى سنها من النفرة فى مثل هذا العمل ولما بلغت ابنتى الثانية عشرة من عمرها عمدت الى خدمة امها وابيها فضلا عن مباشرتها ادارة المنزل ومن فيه من الخدم والاتباع. فتسنى لى ان أنصرف الى زوايا الراحة » (١)

اذا نظرنا الى توحيدة بعينى أمها وجب ان نسلم بأنها فتاة غير عادية . وسيكون لها من محبة والدتها نصيب فوق نصيب كل من اخوتها واخواتها ، وبسبب توحيدة هذه ستبكى عائشة كثيرا ، كثيرا .

كانت قبل الزواج قد تلقت عن مؤنس افندى القرآن الشريف والفقه والخط ، ودرست على الاستاذ خليل رجائى علم الصرف واللغة الفارسية التى سبق فعلمنا أن والدها تولى متابعة تلقينها اياها قبيل زفافها ، مكرسا لابنته كل يوم ساعتين من وقته . ثم تلت أعوام جاءت فى مطلعها توحيدة التى شبت فطنة الذهن ، يقظة الفؤاد، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الادارة المنزلية والتنظيم .

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

فانقلب يشاغل عائشة ذلك الشوق القديم ، وعاد اليها بقوة الحب الذى ساير عمرها فى الحزن والفرح ـ حب الدرس والمطالعة :

« حينئذ خطر لى ان أستأنف ما فاتنى فى صغرى من تعلم فن العروض فجئت بمعلمة » ... « ولكن لم يمض على الشروع فى الدرس ستة اشهر حتى انتقلت المعلمة الى رحمة ربها . وكانت بنتى تلازم دروسنا فى تلك المدة فاستطاعت ـ بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها ـ ان تلم بفن العروض اكثر من المامى به » (١)

توحيدة مرة أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرة بذكرها، والاشادة باسمها ، واظهار محاسنها ، ألما تنطوى عليه من توقد وذكاء ؟ ألأنها جاءت العالم وعائشة حديثة السن فكانت الام لابنتها ـ فيما كانته ـ أختا كبيرة ، وكانت البنت لوالدتها أختا صغيرة ؟ ألأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزلى وكانت ، فى الوقت نفسه ، أقرب اولادها الى تفهم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات فى توحيدة بعد كونها البكر وهى تلك الميزة الاولى التى ذاقت الشاعرة بها لذة الامومة للمرة الاولى ؟

يتعلق بعض الاهل ـ لا سيما الامهات ـ كل التعلق بأبكارهم . ولئن أردف قوم من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطمئن منهم الخواطر الا اذا أوجدوا لكل سيل جبلا يصدمه ـ ان هذا التعلق يخف بعد أعوام محدودة يوم يفتح الولد على الشؤون عينا ترقب وتبرز من شخصيته

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

الخصائص المستقلة . وان جماعة من الامهات يداخل حبهن عندئذ بعض الكره والنكد لانهن يرين فى بناتهن المنافسات والمسابقات . هــذا اذا كانت الام من دعيات التـأنق وعاشقات اللألاء الاجتماعى فى الآندية والحفلات .

لئن قال بعض السادة العـلماء ذلك فان قولهم ينطبق على فئة وتتملص منه أخرى . تتملص منه وتحلق فوقه فى جو المحبة والرحمة والدراية تلك الفئة الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وامهات . لاننا هنـا أيضـا نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدب الدخلاء ويتحرش المتطفلون . والحالة الوالدية ــ كاية حالة طبيعية أو اجتماعية سواها ــ ان هى كيفت الافراد فهى لا تكيف منهم سوى فطرتهم بجبلتها ورغباتها وميـولها . لذلك لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها الا فى الشخصيات المهيأة لها

□

وعائشة مهيأة لذلك على ما نرى من ولعها بتوحيدة ــ توحيدة الآلة القادرة التى تتحول بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تيارا دافقا . فهى تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب الهزيلة تفسيرا لا يهتدى اليه ويترجمه بهذا اللطف ، الا من استنار بنور الجنان

هاك مثالا لذلك :

الفتـاة التى كانت تقـوم بادارة المنـزل ورقابة وضيع أعمـاله الداخليـة كانت ــ على ما يلوح ــ لا تقصر دون أتقان اعمال اخرى تقتضى بعض اللباقة ، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهن

فجاءت يوما بعض السيدات (ويظهر ان الغرض من زيارتهن ان يخطبنها ، وهى تجهل ذلك) فخفت توحيدة ترحب بهن ريثما تأتى والدتها ، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف « أوحشتونا » . الا انها كان بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجىء أوحشتونا « أوحستونا ! » وهنا دخلت السيدة عائشة فسمعت الكلمة التى حرفها العيب اللفظى ، فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العوازل مذ قالت مؤانسة
« أوحستنا » انها تجفو وذاك غلط
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطا
بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط (١)

ومرت على الشاعرة فترة ـ تقول زينب فواز ـ فقدت خلالها والدها (سنة ١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام « وصارت حاكمة نفسها فأحضرت لها اثنتين لهما المام بالنحو والعروض احداهما تدعى فاطمه الأزهريه والثانية ستيتة الطبلاويه وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره واحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطولة والازجال المتنوعة ... » (٢)

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيرا قبل تعلم النحو والعروض على هاتين السيدتين . فقد طالعنا فى

---

(١) روى لى هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الاديب نقلا عن فضيلة السيد الببلاوى وكيل دار الكتب المصرية ونقيب الاشراف سابقا

(٢) « الدر المنثور »

ديوانها مثلا قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها، وغير ذلك ، وجميعه وقع قبل أن « تبرع فى الشعر وتتقن بحـوره » . ومن هنا نستنتج ان اسـتفادتها مـن قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة

ولكن ، أليس ان ضـوابط النظم تتعلق بالموسـيقى السـمعية اكثر منها بالقـواعد المدونة ؟ والواقع ان هـذه القواعد لم تكن الا تقريرا محسوسا لتلك المطالب الدقيقـة التى تجهر بها حاسة السـمع ، فتلبيها أفـراد الطائفـة الواحدة كل من جانبه على غير تعاهد من الآخرين . حتى اذا أجمع كثيرون على امر واحـد عرفوا انّه حاجـة اولية فعرفوه بيانا ، ودونوه قاعدة ، ترجع الى حكمها الاجيال من هذه الطائفة . لا لأنها « حكم » بل لان هـذا الحـكم يترجم عن الحاجة النفسية التى نشدتها حواس الشعراء فى الماضى وستنشدها على الدوام . لذلك نرى ان شعراء جميع البلدان فى جميع العصور أوجدوا فى مختلف اللغات — غير متحالفين فيما بينهم وجـاهلين بعضهم بعضـا — بحورا للشعر وأوزانا وضوابط موسيقية ذات وقع لفظى فى النفس (حتى لمن لا يفهم اللغـة) بينا المعنى الشـعرى يحبو النفس بوقعه الخاص . وعوارض المغـالاة والاغراق والتمسك بصيغة النظم دون المبالاة بالجـوهر ، طوارىء تداهم اللغات تبعا لحالات الاقوام ووفقا لنواميس الاجتماع، الا انها لا تنقص من الشعر دعامته الموسيقية المؤثرة

كذلك قد يعترض بعض أهل الذوق اعتراضا خافتا على ان معلمة العروض تدعى .. الطبلاوية ، قائلين انه على التى

تعلم الاوزان الشعرية ان تنتحل لها اسما يتفق مع عملها ويوحيه للسامع . ولكن ، أليس للطبل من موسيقى ؟ وان لم يكن للطبل شدو اللحن والنغم ، أليس ان له موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟ والسيدة الطبلاوية لم تكن تلقن الشعر ، وهو ليس بما يتلقن ، بل تعلم كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره . فاسمها بهذا متضمن لعلمها وعملها.

وسواء رضى اهل الذوق لهذا الشرح ام لم يرضوا فليذكروا انه أمر فائق ان يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن فى ذلك العهد المظلم للنساء أن يدرسن هذه الدروس ، فى حين ان من يستطمنه اليوم نادرات بيننا وقليلات عند الشعوب الاخرى . اذكر ان كاتبا فرنسويا كبيرا (اظن الفرد كابس Alfred Capus) ندد قبيل الحرب الاولى فى مجلة « فمينا » بالسيدات الفرنساويات لأنهن ، بعد احصاء فئة من المتعلمات بينهن ، ظهر ان العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لا يبلغن الخمس فى المائة . فما اعظم فضل تينك السيدتين الازهرية والاخرى ، ولو كانت ألطبلاوية ، بما كانتا تعرفان ، وبأنهما اضافتا الى مصباح عائشة زيتا يعين على تغذية نوره !

بيد أن تمتع الشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول . قدر على توحيده ان تموت باكرا فى ربيع الصبا . علة مجهولة ترقبها وتنفث فى جسدها وهى تكتم امرها رفقا بالتى تحبها . وها هى تسرد لنا طرفا من حديثها المحزن :

« قبل ان تنطرح على فراش المرض فاجأتها فى احد

الاوقات وهى فى رداء نومها وبين اناملها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية :

اسمع مقالى يا أريب وقصتى شرح مريب
قد كنت فى دوح الصبى اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالى عبرة يبكى على مثلى الغريب
كلا ، ولا لى منهل أروى به الا النحيب
فالدمع منى ساجم والرمس أضحى لى قريب
يا ربى عجل رحلتى واغفر ذنوبى بالحبيب

« فلما رأتنى مقبلة عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ولكنى بادرت فى الحال لاستخرجها فاختطفتها منى ، ثم خاطبتنى قائلة : « لا تعبأى يا امى المشفقة بمثل هذه الثرثرة » . ثم قالت لجاريتها « خذى هذه الورقة فأحرقيها » فلحقت بالجارية واخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فاجابتنى « ان سيدتى تتناول الطعام معك اذعانا لرأفة امومتك ، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة فى جوفها وهى تذهب كل ليلة الى سريرنومها تطمينا لقلبك غيرانها لا يغمض لها جفن » ..(١)

ان نحن وجدنا هنا دليلا جديدا على لطافة توحيدة وحرصها على راحة والدتها ، فلا يسعنا الا التعجب كيف ان الام الشديدة الحب لم تلمح على وجه ابنتها امارات المرض . نتعجب ــ لولا الاستدراك بأن التى ترى ان ثغر توحيدة الزاهى لا يسع ثلاث نقط فيقلب الشين سينا ،

---

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى

قد تعثر بسرعة على عذر شعرى يكتفى به قلبها لكل تغير وكل شحوب

أما وقد ثبت ان الفتاة مريضة حتى لترثى نفسها ، فهاتوا الاطباء ، وهاتوا العلاجات ، وبالغوا فى الاعتناء والمداراة ! الا ان المقدور نافذ لا محالة . والمريضة تعلن ذلك وتلقى على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . انها أقبلت على عالم السر والرهبة فاستمدت منه الحكمة التى تهبط على كل من حاذاه . واستلهمت الغيب ارشادا للمتخلفين فقامت ، وهى الصغيرة وهم الكبار ، تعظهم بسطوة الراحل وحقه على النصح والتوديع الهادىء :

« عبثا تدفعك الشفقة يا اماه الى معالجة أمراضى فانه قد آن الاوان . ولا مناص من تلبية نداء المنادى « كل من عليها فان » وانى اضرع الى الله ان يلهمك صبر ايوب وان يمنحنى نعمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة والتجاوز عن سيئاتى وان يصون شقيقتى واخوتى »

« ثم ضمتنى الى صدرها فاعتنقنا . وبتنا ليلتنا الى الصباح فى بكاء وإنتحاب ونواح » (١)

قضت توحيدة ، فاقامت لها الام مناحة دامت سبعة أعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد . «وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من أولادها وصويحباتها» . « واخيرا سمعت قول الناصحين وقللت شيئا فشيئا من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون » (٢) .

---

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى
(٢) الدر المنثور

وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« اصبح جسمي الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة اتعابي واوصابي . ثم انعم الله علي بالشـــفاء واشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن » (١)

يخيل ان هذا الفتى محمـود شب على شيء من ميـول توحيدة ، وكأنه قد صمم على ان يقوم ببعض ما كانت تقوم به اختـه الكبرى ليفوز بتعزية والدتـه ويربح محبتهـا الخاصـة . ويظهر انه نجح . لانه هـو « فرحـة بيت الحزن » الذي شرع ينصح ويؤاسي ويذكر الام الحـزينة بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليـه راجعـون » . وهـو الذي طلب اشعارها العربية ليجمعها ، وأشـعارها التركية ليطبعها فتكون « أثرا من آثار براعتك وفصاحتك » (٢) فقالت :

« في استطاعتي ان انظم الآن شيئا من الشعر شكرا لله تعالى على ما وهبني من النعم اما اشـعاري الماضية فكنت قد احرقتها كلها ، ولا اظن ان في مكتبتي الا الشيء اليسـير منها بالعربية والتركية . واما اشعاري الفارسية فانها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد احرقتها بمحفظتها كما احترق كبـدي

« ان امك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء من كتب الادب » « وسأنصرف الى الانكباب على تفسـير القرآن ومطالعة الحديث النبوي واني وهبتك ما عندي من

---

(١) و (٢) مقدمة الديوان التركي والفارسي

الكتب والاوراق فاصنع بها ما شئت » واذا « رايت فيها جدارة بالطبع فاطبعها » (١)

وكان ميل محمود شديدا ـ وكل ابن لأم ذكيـة يدرك ذلك ـ الى اظهار فضل والدته بصورة عامة . فنشرالكتب وكان له بذلك علينا حق الامتنان

□

فى عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعد بشرح أحوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة . وها انا لم آت الا ببعض الخطوط الكبرى التى استطعت تناولها . بيد ان الشرح لا ينتهى بانتهاء هذه الصحيفة . وعنـدما ننظر فى شعر عائشة ونثرها وآرائها نظل مماشين تسلسل الايام والأعوام فى حياتها لان كل ما لدينا منه دونته الا القليل بعد الزواج

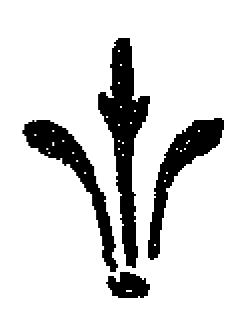
يخيل ان آجال الافراد عموما تخضع لمقـدرين اكبرين اثنين : أحدهما مداومة السـير وأسـتمرار التتابع ضمن حدود طبيعية وفى دائرة قوانين محتومة . والمقدر الآخـر هو ان يعمل المرء طول حياته ـ مع بعض التغير فى أنواع العمل بمقتضى الأطوار المختلفة ـ باختيار مسير ـ أن صح الجمع بين هذين النقيضين . وكأن العمـل ينجـز هـو الآخر ضمن حدود ضربت له وفى دائرة قوانين لا يخرقها الا مستهترا مفسدا على نفسه امكان المعيشة

جداول جداول تجرى اعمار الافراد نحو ما وراء الموت

---

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى

مما لا يحد ولا يدرك . جداول يسيطر عليها ذانك المقدران الشاملان فى المرض والعافية ، فى الفرح والترح ، فى الامل والقنوط ، فى الرغبة والاشتياق ، فى المحبة والكراهة . والاصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكون شدو الجداول البشرية ـ ذلك الشدو المطرب المشجى . وهذا الجدول من عمر عائشة هو الذى سنسمعه شاديا فى ما يلى بابهام كل خرير ، ولذة كل قديم ، وتبشير كل رائد . .



الفصل الرابع

بلبئة الشاعرة

بيئتها الاجتماعية

ترى هل الحاضر الا خلاصة ما أنمته الحياة واستهلكته من المطالب والجهود ؟ وما هي البيئة ان لم تكن تلك «الخلاصة» منظمة بيد الانسان وبمشورته أو منتظمة بحكم الاحوال والاسترسال ؟ وهل اليوم الا الماضي لغد ، وهل يكون الغد الا ماضيا لبعد غد ؟

ان كل صباح وكل مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاهما الى ذخيرة الماضي الفسيح ، وكل خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجه في رحاب مايمر ويتجمع ويبقى . وعندما ننتقل من بيئة الى بيئة ، ومن مكان الى مكان ، ومن آن الى آن ، لن نجد أمامنا الا صورا مختلفة من صور الماضي الحي في كل حاضر وفي كل مستقبل

فاذا ماولد الطفل تلقته دائرة من دوائر الماضي التي تدعى « البيئة » ، فوجد فيها بداهة ما يقوم بحاجته لأنه هو كذلك صورة أخرى من تجمع الماضي . فلا غرو أن يقوم كل نوع بنوعه . ولا غرو أن تحتشد أسرار الحياة وتوجز في البيئة التي هي صورة مصغرة من العالم . ولا غرو أن تكون ممثلة للعالم وللحياة في أغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض أسراها ، وتكون لآخرين أقسى مثال للجور والتعسف والحرمان

وليست البيئة من خصائص الانسان • بل للجماد ، والحيوان ، والنبات بيئتها الموافقة لنموها ، الملائمة لطبيعتها • الا أن الانسان قد يكون فى بيئته الحسية يقوم بكل فرائض مرتبته الاجتماعية ومطالبها ويعد فيها من السعداء أو من البؤساء ، ويظل فى داخله شاعرا بشعور غير هذا الذى يحسبه الناس عليه ، ويرتبونه بموجبه • قد يكون جائعا وهو يقيم الولائم ، سائرا فى القفار وهو يتخطر فى الحدائق ، مستعطيا متسول الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح • وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحرية تصطفق فى نفسه وهو مكبل بالقيود والأصفاد • وقد يلمس مكمن مقدرته وهو فى أدنى دركات العجز • وقد يتضح فى وجدانه أعلى نهج للمعرفة والحكمة وهو أمى جاهل لايدرى ، بموجب تعريف البشر ، الفرق بين اللغة والفن ولا ماذا يميز بين الموسيقى والكيمياء

البيئة الاجتماعية هى دائرة الانسان الاجتماعى • الا انها لا يأبه لها الانسان الخفى فى الانسان ، الذى كثيرا مايحتاج الى بيئة غير هذه ، ويختار أقاربه وعشراءه وأحبابه مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئة والحياة أقاربه وعشراءه وأحبابه • وفى هذه البيئة المعنوية صورة أخرى من الماضى الباقى • ولكم أتمت الحياة نفسها بحصر هذه المناقضات فى شخص واحد ! ولكم خلق الماضى لنفسه مستقبلا جميلا من لهف الحرمان ، وزفرات الاسى ، وتجمد الدماء التى لاتسيل !

▭

وعائشة ابنة ذلك السرى الوجيه والموظف الكبير الذى،

بعد تقلب المناصب أيام عباس الاول وسعيد واسماعيل ، انتهى بأن يكون رئيسا للديوان الخديوى ـ عائشة لم تفارق مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد بك الاسلامبولى الذى كان حاكما فى السودان . ظلت فى تلك المرتبة تتمتع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسى ، وتعاشر مثيلاتها نساء العظماء والكبراء. ولقد ذكرت عرضا فى أواخر كتابها « نتائج الاحوال » شيئا عن اختلاطها بالبلاط ، وذلك لشرح كلمة « واى واى أى غوث وأنا أى شيذرتوانا ، التى تقولها الاعاجم حين ما ترمى بهول فجأة. قالت :

« ... كانت تدعونى ربة المعالى وكنز اللآلىء والدة صاحب السمو اسماعيل باشا الخديو السابق تغمدها الله برحمته ومنحها فسيح جناته ـ بالقصر العالى للترجمة عند حضور أقارب ملوك العجم . فكنت أسمع هاته اللفظة من أفواههن . وهى كلمة تقال عند مفاجأتهن بشىء ما . وكنت أقيم معهن على قدر اقامتهن وأتسامر معهن وأستفسر عن عوائدهن وأخلاقهن »

فى هذه الاوساط تجد ما ألفته من كياسة وتهيب ، وما أحسنته من آداب المحادثة والمجاملة واللطف . على أن أولئك السيدات لايعتنين بغير الشؤون المعتادة فى العائلة والاجتماع وما أفعمت به من مسرات وأحزان . أما عائشة فشأنها شأن العاشق الذى تبدو له جميع محافل الانس والطرب مقفرة لتغيب الحبيب عنها .

فى تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح، وضخامة الالقاب،

وأبهة المظاهر ، ولكنها فيها يعوزها القوت ، ويعوزها السرور ، وتعوزها الحرية • انها تتوق الى الاختلاط بالذين يعرفون ماتعرف ، ويفكرون كما تفكر ، ويحبون ماتحب • فى الخارج حركة التطور تجرى مجراها الطبيعى ، وان وثبت حينا ، وتريثت حينا • وفى الافكار غليان ، وفى الحماسة فتوة ، وفى القلوب أشواق • ولا تخلو المدينة من دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر ، ويتناقش فيها الأدباء كأنهم فى وفاقهم وفى اختلافهم أعضاء الاسرة الواحدة • ولكن عائشة المعنوية ان هى تجاوزت نساء عصرها بالمعرفة والفهم ، وسبقتهن باقتحام عواطفها وتقدم مطالبها ، فان عائشة الاجتماعية تظل مخدرة محجوبة

صدمتها الحياة للمرة الاولى فى النضال مع والدتها بين الكتاب والابرة • فأيدها الوالد الحصيف وسيرها الى ماتريد • وجرت خطوات فى فرجة الاعوام فاذا بصدمة أشد وأصلب ، صدمة العادة والتقليد • هذه لن يحميها منها الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة • اخبرنى كيف تثور على جماعتها امرأة هى ابنة رجل معروف وأم أولاد محبوبين ، وليس بين جماعتها صوت ينكر تلك العادة ويدعو الى تغيير ذلك التقليد ؟ يومئذ كان قاسم حدثا ، ولعله كان من دعاة الحجاب • ولعلها هى كذلك لم تفكر فى وجوب السفور • بل عمدت الى تلك العلامة الاخرى من علامات النبوغ ورضيت بها : الاحتمال حيث لامنفذ غيره

امتثلت واحتملت • ولكن حتى للاحتمال والامتثال ساعات لامندوحة للمرء فيها عن أن ينفس كربته ، ويندب حسرته ،

ويرسل ماهو أشـــبه ببثة السجين المظلوم • فقالت انها دعتها :

« الرأفة بكل مغبون لقى ما لقيت ، ودهى بما به دهيت، الى أن أبدع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الافكار، وتلهيه عن أحزانه فى غربة الوحدة التى هى أشد من غربة الديار ••• » (١)

هذه الكلمة تكفى لنشعر مع عائشة بوحدتها المضاعفة• وهذه الكلمة وهي لوحة تصويرية تامة ، تدهش عند امرأة سبقتنا بثلاثة أرباع القرن • وغريب ان تهتدى يومئذ الى حقيقة تلك « الوحـــدة » وان تعبر عنها ـ وهي ابنـــه عصر التطويل والتبسط ـ بهذا الايجاز البليغ

وكأنها مرة أخرى تجد بعض الراحة فى شرح المها بشكل الاعتذار المجلل بالسجع والتورية :

« ••• لم يمكن لى دخول محافل العلماء المتفقهين » ••• « فكم التهب صدرى بنار شوق الى محافلهم اليوانع ، وأدر جفنى على حرمانى من اجتناء ثمرات فوائدهم در المدامع • وقد عاقنى عن الفوز بهذا الامل حجاب خيمة الازار، وحجبنى قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الاقمار • وأحلانى بسجن الجهل حليف أثقال وأوزار • فكانت تلك الحجب لمن لام فى هفوات هذا المسطور أكبر اعذار• فلا تلوموا معشر الافاضل خيبة ، ولا تعبثوا بسجينة شجية ••• » (٢)

••• وخصوصـــا ••• لاتلوموا معشر القراء فى هـــذا

---

(١) و (٢) نتائج الاحوال

العصر كاتبة مسجعة • لانكم لو رجعتم الى ماكتبه بعض « كبار » الناثرين فى عهد الخديوين لعثرتم على ما ليس فيه شيء من احكام عائشة ولا ذرة من صدق عواطفها • ولى من هذا البيان معارض لما جاء فى جريدة « الافكار » الصادرة يوم ١٣ مارس ١٩٢٣ ، استهلالا لمقال عن الصالونات الادبية فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وعلاقة الآداب فى تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية • قالت « الافكار » :

« كنا نريد أن نكتب شيئا عن السيدة عائشة تيمور باعتبار أن تاريخ حياتها يفيض النور على الحركة الادبية الفكرية فى مصر فى عهد اسماعيل وتوفيق • ولقد أجهدنا أنفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل أو غير دقيق للدائرة الادبية التى ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع فى منزلها (بدرب سعادة) • ولكننا سنتكلم عن سيدة انكليزية (ليديا وايت) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء فى عصرها ••• »

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته ؟ أهو استند على قول عائشة : ••• « صرت أتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك فأجد صرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ••• » وهى تعنى بذلك أيام اختلافها ووالدتها فى حداثتها القصوى قبل أن تتحجب ؟ أم هو رأى ماقد يشير الى ذلك فى القصائد العربية والتركية التى رثت بها بعض العلماء ؟ أم لديه دليل آخر ؟

حاولت الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على «الافكار»

فى ذلك الحين فلم أظفر بالجواب الشافى • وتيمور باشا الذى قال قبلئذ ان شقيقته كانت « محجوبة » أجاب على السؤال الجديد بقوله انه يظن « ان ذلك لم يحصل »

أسافرة كانت عائشة ـ أحيانا ـ ، أم محجوبة دواما ؟ نقطة فى غاية الاهمية ولكن يتعذر جلاؤها ، خصوصا بسبب تباين السن تباينا كبيرا بين تيمور باشا وشقيقته • فاذا جاء يوما من يثبت بالحجة الناصعة سفور عائشة فى تلك المحافل الكريمة ، سجل للشاعرة فضلا جديدا وشجاعة فائقة ، وأظهر انها بشير التحرر النسوى ليس من الوجه النظرى والعلمى فحسب ، بل بالعمل كذلك • لانها تكون قد حققت قاسما قبل أن يتكلم قاسم

□

أما وأندية الرجال ليست ، فى الظاهر ، لشاعرتنا فلنتحول الى اللاتى قد تتفاهم معهن من النساء • وفى مقدمتهن « ربة الادب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ اليازجى نصيف » فان عائشة لتتمثل بها وتذكرها باعجاب فى ديباجة « حلية الطراز » • وأهدت اليها نسخة من ديوانها بعد صدوره • فشكرتها « وردة العرب » نثرا ونظما ، وأعقب هذه الصلة الاولى تبادل بعض الرسائل أثبتتها زينب فواز فى كتابها « الدر المنثور » • لن تجد فى تلك المراسلة كل الحياة التى يودعها بعض الادباء فى رسائلهم حتى ليتغذى بها أصحابهم أياما وأسابيع ، ويتعشقونها كأنها قطع من أرواحهم • بيد أنك ستجد سبك الكلام اللطيف ، والثناء المأنوس ، والنظم الحلو الرنان الذى

يرضي ويجعلك شاكرا لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من أسلوب المجاملة النسائية الكتابية فى ذلك العصر (١)

وهناك سيدتان قيل لى انهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب افندى الكتخدا ، ومن عشيرات الشاعرة • لم أوفق الى شيء من آثارهما وقد قل من سمع بآدابهما بين المصريين • حتى انى قيل لى مرة عند ذكرهما انى أبتدع شعرهما من مخيلتى على نحو ما فعل زفس بابنته بالاس ـ اثينا التى أخرجها من رأسه تامة الجمال والكمال • لاشيء من ذلك • بل قال لى أحد الفضلاء انه قرأ لاحداهما أبياتا جيدة

ومن معاصراتها الست المغربية والبون بينها وبين عائشة شاسع جدا طبقة وحالة ومعرفة . الا انها كانت امرأة ذكية ، سريعة الخاطر ، تمازح الناس بشيء من الجرأة المتطرفة ، وتتطارح الازجال مع الشيخ على الليثى وغيره . ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر انه اتصل بها يوما أن أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح . فأجابت المغربية بابتسامة ذات معنى خطير : « والله كلام سعادة الباشا فى محله . . . »

كذلك نعرف زينب فواز السورية المولد المصرية الموطن، منشئة « الرسائل الزينبية » فضلا عن فصولها الاخرى وقصائدها . وهى التى عقدت فى كتابها « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » فصلا مطولا عن شاعرة آل تيمور .

---

(١) السيدة وردة اليازجى صاحبة ديوان «حديقة الورد » هىمع عائشة الشمعاع الاول فى ظلام الحالة النسائية فى الشرق •

وصدرت الكتاب المذكور بخطاب من السيدة عائشة مثقل بالثناء والتبجيل على نحو ما كانوا يثنون يومئذ ويبجلون

▭

ويحدثنا « المقتطف » فى عدد يونية ١٨٩٧ عن السيدة ليلى هانم « كريمة المرحوم خليل باشا شريف من وزراء الدولة العلية ، وأخى المرحوم على باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين السابق » . فيقول ان هذه السيدة « تكتب بالانجليزية مقالات تنشر فى أشهر المجلات » وانها كتبت رواية غرامية اسمها A Turkish Love Story ترجمها محرر « المقتطف » ونشرها متتابعة فى المجلد السادس والعشرين سنة ١٩٠١ باسم « رواية أمينة » . قرأت هذه الرواية بثوبها العربى بكل سرور فى العام الماضى . ولا شك عندى ان الوصف فيها « لحريم » الاستانة يومئذ أصدق من كل ما كتبه الافرنج فى هذا الباب

وليست لتقصر يقظة المرأة على الكاتبات والاديبات بل للمهتمات بالشؤون العمومية عن غير طريق القلم أثر قيم . لذلك يتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنسس عين الحياة الزوجة الأولى للسلطان حسين (يوم كان أميرا) ، ووالدة البرنس كمال الدين حسين . فانها كانت معروفة بالمقدرة والفطانة وحب السعى الحميد . ومن مآثرها الخطيرة الشأن « مبرة محمد على » أول جمعية خيرية للسيدات المسلمات ، بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دعت اليه . ولم يتم انشاء المستوصف الأول الذى أطلق عليه اسمها ومازال معروفا به « مستوصف عين الحياة » الا بعد

وفاتها فى اوائل ١٩١١ . اما الغرض الذى عينته لنفسها هذه الجمعية فهو « العمل جهد الطاقة ــ اولا لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار فى القطر المصرى . ثانيا لتقليل عدد وفيات الامهات الناجمة عن حميات النفاس » .

وماذا اقول عن البرنسس نازلى الملتهبة ذكاء ، البارعة فى الموسيقى وفى اللغات التى عرفتها ، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من افاضل الرجال والتدخل فى مختلف الشؤون العالمية والحوادث الوطنية . ولقد نشر المرحوم ولى الدين يكن فى كتابه « المعلوم والمجهول » صورة خطاب ارسلته الى عبد الحميد فى ايام بطشه وجبروته . وحسب القارىء الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف ما كانت عليه من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية . قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهيبة :

القاهرة فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٦

« مليكى

« قرأت مع الاسف الشديد فى جرائد أوربا التى وردت فى هذا الأسبوع ان مولاى الاعظم غاضب على غضبا شديدا . وعلمت ان السبب فى غضبه حضورى مؤتمر « تركيا الفتاة » الذى عقد بباريس . ولهذا ارجو الاذن لى ببيان ما يدور بخلدى فى هذا الباب :

« ان استهدافى للغضب الملوكى ليس بالامر الحادث . ولكنه مستمر منذ اربع سنوات . واذا وجب ان يميز من حل بهم ذلك الغضب سهل تعيين الفئة آلتى ينبغى ان أحشد فى عدادها . غير ان حضورى مذاكرات هذا المؤتمر

ليس تذرعا للشهرة . فهو اذن منزه عن كل غرض ذاتى

« يذكر مولاى الاعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف : « انى مغرم بكلمة الحق » . ولقـد بشرنى المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك ان لا نحيد عن كلمة الحق

« قرأت ماينشره هذا المؤتمر منذ زمن مديد واطلعت على اللوائح التى رفعها الى الاعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق فى وصف الدمار الذى باتت فيه المماليك المحروسة الشاهانية، رأيت ان احضر مذاكراته عند نزولى بباريس

« فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقام الملوكى وللوطن والامة . ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذى بات على شـفا الفناء . فهاجنى ذلك وتذكرت ان مولاى كان مغرما بكلمة الحق ، فظننت وأسـفاه انه ربما تسلى عن ذلك الغرام . ولكن هز فؤادى ما عاهدت الله عليـه وأيقنت ان العشق يزول والعهد يبقى

« ولما زرت الاستانة منذ اربع سنوات أوصانى بعض المقربين بأن ارفع الى مولاى عريضة استقيل بها من هفواتى ولما لم يكن لى علم بهفوة سبقت لى لم اقدم على هذا الامر. فقد تغيرت سياسة مولاى مع الانكليز . وذهب الرضاء الذى كان توسط لى فى نيله المرحوم السير هنرى لايرد : وأنى لاتلقى بكل ارتياح توسط الانجليز لى فى احراز رضاء مليكى . بل اشكر اليوم ما أصابنى من الغضـب الملوكى . وان فى بعدى عن مشاهدة ما وقع بالاسـتانة من الزلازل وما نزل بالرعيـة من الفقر ، وما جـرى من دماء المظلومين

الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية ، وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم مايسليني وما أحمد الله على بعدى عنه. وسأستمر لذا على العمل بنص الامر الملوكى الذى بلغتنيه الحكومة المصرية غير رسمي ـ ما دامت لى الحياة

« على أنى لا أبرح داعية بطول عمر مولاى وبقاء دولته . ولا أبرح داعية بأن يعود له سالف غرامه بكلمة الحق • فاذا قدر الاله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة • فيصبح سعيدا مهنا . ويلقى رعيته فى رغد بالاتحاد والحرية فان رعيته لا تريد منه الا أن يكون أبا مشفقا

ولعلى تجاوزت الحد وأسأت البيان • فلست أدرى مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه • فليثق مولاى ان كلام أصدق عبيده فى زماننا هذا لايختلف عما جرى به قلمى • وليوقن مولاى ان ورقتى لم تسطر الا بخالص النية وصادق الولاء (١)

خادمتك نازلى

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصرى »

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة أن تعلم من هو عبدالحميد، وكيف كان ينتقم من مناهضيه فى أية بقعة كانوا من الارض • فكيف بهم فى مصر ومن أعضاء الاسرة المالكة

قد يفوتنى أسماء أخرى معروفة • وقد يكون ثمت سيدات كثيرات ذكيات قديرات من اللاتى يدمجن فى « الطراز القديم » وقد يدهشن العالم والمحنك بأسلوب ادارة بيوتهن وأعمالهن وأملاكهن لوفرة مايبدين من الخبرة والدراية ـ حتى ولو كن أميات . ولكن أيكون لمثل عائشة من مثيلاتهن بيئة معنوية »

(١) عن « المعلوم والمجهول » جزء أول . وقد قدم ولى الدين بك هذه الرسالة قائلا انها منقولة عن جريدة « حذام » التى كان يصدرها شقيقه يوسف بك حمدى يكن

بيئتها المعنوية

لم يكن للشـــاعرة من بيئتها الاجتماعية البيئة المعنوية المطلوبة . ولا اظنها نعمت من ذلك العصر بما نحن اليـوم نفتقر اليه

ماسمعت اديبا يذكراهمية المحيط ومبلغ تأثيره الا سمعت منه الشكوى . ما حدثنى مطلع على شؤون الشبان العائدين من اوربا الا قال انهم بعيد وصولهم يشعرون بنقص علمى عظيم حولهم ، ولا يلبثون ان يفهموا انهم عائشون فى وحـدة فكرية وفنية بعيدا عن تواصل الحركة الذهنية فى العالم . ولا يعرف مرارة تلك الوحدة وصقيعها الآ الذى ارغم على تقطيع الاعوام والاعوام تبليه فى انفراد ووحشة . لا يعرفها الا الذى صرف الايام والليالى جائعا عطشا ، وهو يعلم أنه فى قفر لن ينبت له فى القريب العاجل قوتا ولن تفجر لـه منه المفاوز منهلا

حال محزنة حال التائق الى ما يعلو على العيشة الملامسة الثرى . حال محزنة حال الاديب الصميم فى عصرنا والمتأدب . انه سرعان ما يتصـدى له من يناقض ويعـاكس ويتمطى ليقدم له ويؤخر ، ويفصل فى قماشه ويخيط ، وسرعان ما ينبرى له وللعالمين من يقدح ويهجو لسبب او لغير سبب ، أو لسبب جدير بالتقدير . وسرعان ما يسمع المدح المائع

المتهدل لاعترافا بالاهلية، بل عن هوس ، او حمق، او لغاية. وقد يجد من يمتدح باخلاص ولكن ببلاهة فيجعل الذبابة فوق النسر، أو يسيرهما في فلك واحد لانهما يطيران وكلاهما من « ذوات الاجنحة » (١)

اما تجانس الخواطر ، وحب الآداب ، وسعة الادراك في تحليل الاشياء وتقديرها ، والاحكام في وضعها وترتيبها ، والغوص في المعاني الواسعة ، وفهم مناحي الحياة والعناية بخصائصها كما هي لا كما يراد حصرها في شخصية واحدة — كل تلك الغبطة المعنوية التي نطلبها بأشواقنا ولا نحسن التعبير عنها ، فليست بعد لنا . وهي مفقودة في هذه البلاد. بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبلها من الأفراد

وأولئك هم المعذبون .

وستبقى هذه الحياة مفقودة ما بقي التعاطف الأدبي غير موجود . واذا طرح اليوم متحمس النداء المستثير فكأنه يستنهض انبتة تضطرب وتتحرك في مكانها وقد حظر عليها الخطو والانتقال . وتمضي الصيحة الرجافة فترتطم نبراتها في الهواء ثم ترتد على مرسلها ثقلا باهظا كأنما يعترضها في المضي جدار كثيف تختنق عنده الاصداء فترتد على قلب مرسلها ثقلا يجر معه معاني المحال وانقطاع الرجاء — الى حين .

---

(١) كأن عائشة شعرت بهذا في أيامها وأرادت الردع عنها بقولها :

الناس شتى في الصفات فلا تكن
ممن يقيس الدر يوما بالبرد
ان قست فظا بالرقيق فلا يلم
من بعد نفسك في الورى ابدا احد

والمدهش بعد كل هــذا ان تجد منا من يشب وينهض ويتفوق . يتفوق ليس على قياس مدح المداحين ، وهجو الهجائين ، ومسيرى الذبابة والنسر فى خط واحد . بل هو يرتفع رغم المثبطات فوق الصدمات والموانع .

يرتفع ويبدو عظيما وكان اسمه وحده يكفى ليقــول : « انى موجود واثرى متسرب الى جمودكم ليقلبه حركة !..
انى موجود ، وحميتى ماضية فى خمولكم لتثيره نهوضا !..
انى موجود ، وعزمى متغلغل فى قلقكم لينسقه انتظاما ! »
قلت مدهش ذلك ؟ كلا ، بل هو خطير !

أليس اشد دلائل القوة خطرا فى ان يظل النسر محلقا ولو مهشما داميا ؟ . ان يظل محلقا . حتى بجناحين مهشمين دامين ؟

□

ولعل الحياة تحتال على بنيها ، لا سيما الاصفياء منهم عندما توسعهم مقاومة وتشبعهم تعــذيبا ؟ لعلها تودعهم حاجات ومطالب تعلم سلفا انها غير مهيئة لها ما يقوم بها ويحققها . وما ذلك الا لتلح على الفرد الموهوب ان يجنى المعونة والتعزية والقوة من اعماق وحدته ، من اعماق وجعه، من اعماق قنوطه ! لعل لها غرضها من المنع والحرمان فيظل لابنها المختار ان يخلق لنفســه عالما يملأه ببرايا هواجسه وبأشباح مايحب ويأمل وينشد . يظل له ان يبدع ما ينقصه ابداعا ما ، ابداع التخيل والتدوين ، فتكون الحياة لذاتها عن هذه الطريق صورا جديدة من لهف الحرمان ، وزفرات الاسى ، وتجمد الدماء التى لا تسيل ؟

أم لعل الحياة فى أحشائها كلوم يعوزها البلسم ، وهو لا يستخرج من شكوى البؤساء . فتخلق لهم المحن لتسمع مثل هذه الزفرات التى ترسلها عائشة فى خلوتها :

أعلل نفسى والأمانى كثيرة
وما كان أغنى النفس عن ذا التعلل
فلا الوقت فى أمرى فأقضى مآربى
ولا الدهر يصفو لى فأكمد عذلى
ولا النيل يدنو لى فأروى بفيضه
ولا الصبر طوع لى فتحلو الحياة لى
ولا الحظ ذو سعد ولاالبخت مسعف
ولا مهجتى صلد أقول تحملى
ولا لوم ان واريت فى الترب جثتى
وقلت اقيمى حيث ذلك منزلى

اى انها تحبذ الانتحار فى هذا البيت الأخير . ومن ذا الذى لا يشتهى الموت فى بعض لحظات الالم ؟ . ثم تعود الى طلب المسرة والهناء ، ولكن لتلقى خيبة أخرى :

والله ما همت حظا باسم داعية
الا واعقبت فيها الهم من اسفى
ولا سعيت باقوى العزم فى أرب
الا رجعت طريح الارض فى دنف

او لترى السرور يتحول الى الألم شأن كثير من مسرات الحياة !

وما منحت بيوم قد أتى غلطا
بالانس الا وقامت فيه غاراتى

ويظل الاختبار يحذر وينذر :

لا تفرحن بدنيا اقبلت وصفت
بكل ما ترتضى ، واحذر عواقبها

وترقب احوال الناس فيسؤوها منها الخلل والفساد :

حسن الوفاء وصدق الود قد صرعا
واستوحشا بفيافى الغدر وانصدعا
كلاهما من سقام لا مساس له
حزنا على الحق والانصاف مذ صرعا

واولئك الادعياء الناعتون نفوسهم بما ليس فيهم ، المتلمظون لأن الفرص سنحت لهم ضلالا بأن ينزلوا الاذى بما يحيط بهم . وهم يحسبون واجب البشر كله فى ايقاف الجهود على اشباعهم وارضائهم ـ كيف تذكر اولئك ان لم يكن بلهجة الازدراء والاخطار هذه .

آل الغرور لقد ساقوا نجائبهم
شرقا فغربا فداست كل ما لاقت
ظنوا الزمان على رغم يطاوعهم
وأن أوقاته طوعا لهم راقت
وليس الا عدوا سوف يفجأهم
برقط غدر الى عاداتها اشتاقت

ألا يذكرك هذا البيت ، لا سيما الشطر الثانى منه ، بالمعرى وأرائه فى الدهر وعربدته على الدنيا التى كثيرا ما يشبهها بالحية الرقطاء ؟

وهكذا تجد عائشة الألم عوضا عن الهناء . وليست الآلام الملموسة البارزة انكأ الالام . بل قد نفضل احيانا ان نصاب بما يسحقنا ويجرفنا بشدة جرف العاصفة لأوراق الخريف ، بدلا من معاناة ما نسكت على مضضه مما نأنف التفكير فيه مليا ، ونستنكف شرحه مع عجزنا عن مقاومته والابتعاد عنه .

ولربما آثرنا الداهية الدهماء تعبث بنا فتذرنا هباء ، على مقاساة نكال متقطع متتابع كوخز الابر . نكال لا هو يشتد فيقتلنا ، ولا هو يكف لحظة لنتخدر . ولا يكون عقابا على ذنب فنشوب ونتفادى . بل كثيرا ما يجيىء مكافأة على الحسنى فيفعم القلب مرارة

▭

اجتمعت فى اوائل مايو ١٩٢٢ بالاستاذ الشيخ الغمراوى المفتش الاول للغة العربية فى وزارة المعارف . فذكرت عائشة فقال : « انها شاعرة عصرها وان اساؤا فهم كثير من معانيها » قلت « مثلا ؟ » فقال : مثال ذلك قولها :

ما ضرنى أدبى وحسن تعلمى
الا بكونى زهرة الالباب

فما يفهمه الشخص العادى من هذا البيت انها تمدح نفسها مدحا يشبه الذم . وما ذلك الا لقصر النظر اولتعمد. فى حين هذا القول يقرر أمرا واقعا تألمت من جرائه . ذلك أن بعض السيدات كن يسمعن عليها الثناء الذى لم تربحه بالتظاهر والتهويش بل بالكفاءة والكرامة . فيثور منهن الحسد فيعمدن الى تشويه الحقائق والتحريف والتعريض.

يشعرن بالقصور عن مجاراتها فيستسلمن لتعذيبها والحاق الأذى بها على مختلف الاساليب انتقاما لنفوسهن من تفوقها . فشعرت بهذا وتألمت . لذلك قالت « ما ضرني أدبي الخ »

هذه خلاصة كلام الاستاذ وهو من الصحة بحيث تجد له طائفة من الادلة فى شعر عائشة كقولها :

وكم حليفة سعد اذ تعنفنى
تقول سعيك مذموم النهايات
فاخفض الطرف من حزن أكابده
واهمل الدمع من تلك المقالات

واها لتلك الدموع ! تنصب فى القلب عند كلام الحاسد والمتطاول ، وتدفع الى التشاؤم فى نبالة الفطرة البشرية ، ثم تنهمر فى الخلوة لاذعة محرقة . على ان عائشة عذبة بطبيعتها فهى لا تثور سريعا . بل تتجلد هنا وفى معاكسات أخرى وتكافىء الشر خيرا حتى نفاد الصبر :

ومذ اتت عذلى تبغى مصادرتى
ظلما منحتهمو أسنى الكرامات
وكلما عددوا ذنبا رميت به
بسطت للعفو راحات اعترافاتى
وكلما حرروا منشور مظلمتى
واظهروا فى الورى غدرا جناياتى
اظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى
وكان ما كان من فرط التهاباتى

واها لتلك النصال تغمدها فى القلوب ايادى الغرباء وأيادى المعارف والاصدقاء !

واها لتلك الايدى التى احسنت الينا ، وتلك الاخرى التى احسنا اليها ، تمتد لتأتى أشارة تمحو جميل الذكرى حينا وتحجب رقيق الشفقة دهرا !

وتلك الكلمات الفاترة الركيكة وذلك الترفع المصنوع الحقير ! وتلك العناية التي سرها التقليل ! وذلك الشرح للثناء فى الظاهر وكل الغرض منه التصغير والتحديد السخيف!

وتلك الشبكة الواسعة التى يحبكها حولك الاغتياب والافتراء ويلصق بك ما يلصق من التهم والذنوب ! فتفكر اولا فى الدفاع عن نفسك امام الذين تحسبهم افطن من غيرهم واقرب الى الانصاف . وبعد قليل تصمم على السكوت كبرا وازدراء . ذلك ما تعنيه الشاعرة :

ولم افه لذوى رد لمعرفتى
ان الحبيب حبيب فى المسرات

طبعا . هم كذلك اصدقاء المجتمع، الاصدقاء السطحيون والآخرون المتقمصون فى اثواب الاصدقاء والمتكلمون بلسانهم كيف يركن اليهم . لذلك :

اخفى الاسى ان حسود جاء يسألنى
لاين أسعى ، وأومى لابتهاجاتى

وقد تخفيه احتشاما وصيانة لكرامة الالم، وقياما بالواجب الذى يمتهنه أولئك الذين يكرهون الناس اكراها على مخاشنتهم ومقاطعتهم لأن الجفاء الوسيلة الوحيدة للتخلص من تطفلهم . يزعجون الناس بلا مراعاة فيخسرون حتما

عطف القلوب . يتجاهلون ان لكل شيء حدا طبيعيا ، وان اعصاب بني الانسان ليست من حديد . فلا تحتمل النواح والشكوى والالحاح والمضايقة الا لحين . وان واجب المرء الاول نحو صحته لا سيما وان له من مسؤوليته وشؤونه ما يتحتم القيام به ان يضن بكل تاثر مضن وان يقلع عن كل اضطراب عقيم

ان التحدث بالهموم وشكوى الغموم مرض شرقي متأصل. وكأننا اقرب الشعوب الى رجم الآخرين بآلامنا واوصابنا في كل زمان ومكان . وليس ادل من هذا على الضعف المعنوى وضعف الخلق .. ليس أدل من هذا على الحاجة الى التهذيب .

وكأني بعائشة مطبوعة على هذه الصيانة الخلقية والكتمان النبيل فهى تقول :

اقوم والضيم تطويني نوائبه
طي السجل ، ولم أسمعه أناتي
ان ضل سعي فهادي الصبر يرشدني
الى طريق رشادي واستقاماتي

اما والقلب المعذب يظل على نبله ، في حاجة الى ان يبث كربته لصديق ذي حول ولطافة ، فعائشة تتجه الى القلب الرؤوف الاكبر الذي لا يقلقه انين البرايا :

ولم ازل اشتكي بثي ومظلمتي
لعالم الجهر مني والخفيات

وقد يحسن ان ادغم في هذا الباب ملاحظة أخرى : هناك نكتة تكاد تكون الوحيدة في كل كتاباتها ، وقد ظهرت كل

الظهور فى عصرها دون تمييز فى الموضوعات . فتجدها امامك فى المرض والعافية ، فى رثاء الاحباء وفى آهات الغرام. موضوعها الطب والاطباء .

وقد تشير الى قلة ثقة الشاعرة بابناء ابقراط الجهابذة النطس . قالت تتهكم على طبيب فى ثلاثة ابيات مفردة :

يا من أتى للجسم يبرىء سقمه
ويظن جالينوس بعض عبيده
افنيت بالطب الذى تهدى به
أمما ، وقربت الردى ببعيده
وزعمت انك انت قد جددته
ولقد اضعت قديمه بجديده

وهاك ما يعنى أن يأس الطبيب فى نظرها أمل :

اذا يئس الطبيب وكل عنى
بقدرته بما ارجو حبانى

وهذا استهزاء بالاطباء وتوجع من رمد عينيها :

تخالفت الأساة بطول وعد
يعللنى ، ويأس فيه حينى
ومن فظ يهددنى جهارا
بمبضعه المصوب فى اليدين
وقد عفت الأساة وعدت ارجو
طبيب الكون رب المشرقين

وفى وصفها لاقوياء العالم وضعفهم حيال الردى :

يؤوب بالعجز اقواهم اذا ألم
به ألم ، ويبدى شر حسرات

يلوذ ضعفا باذيال الطبيب ، وما
يغنى الطبيب لدى فتك المنيات

وكذلك كان لها فى الرثاء مجال لاظهار عجز الطب والاطباء فقد جاء فى مرثاة والدها :

رجع الطبيب بيأسه متسربلا
وأراق جرعته على الحصباء

وفى مرثاة ابنتها :

جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا
ان الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه
بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له
عجل ببرئى حيث انت خبير
وارحم شبابى ، ان والدتى غدت
ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حرمت طيب الكرى
تشكو السهاد وفى الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه
قالت ، ودمع المقلتين غزير
اماه قد كل الطبيب ، وفاتنى
مما أؤمل فى الحياة نصير
لو جاء عراف اليمامة يبتغى
برئى ، لرد الطرف وهو حسير

ومن مثال ذلك فى شعرها الغزلى :

سرورى باللقا ونعيم قربى
اعاد بعودك الميلاد ثانى
لقد أرغمت كل طبيب سوء
اضاع بهزله طول الزمان

وغيره :

لو شخص الداء جالينوس اعجزه
وقال لقمان تكليفى به باطل
كيف الشفاء ومن اهواه فارقنى
هيهات ان الهوى بحر بلا ساحل
جاء الطبيب يداوينى فقلت له
دع عنك طبى ولا تتعب بلا طائل
تعذر الطب والبرء انزوى ونأى
عنى ، ولونى من فعل الهوى حائل
وما ينفع الطب والاحشاء فى حرق
والجفن من فرط وجدى دمعه هاطل

واحسن دواء ينجع وينشد هو ذا :

أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب
واحذر ، حماك الله ، ان يدرى الرقيب
دعنى ، لانى باللقا قلبى يطيب
ودع العلاج وما يقول به الطبيب

عفوكم يا سادتنا الاطباء لئن قال بعض الشعراء ان بعض الأمراض خير من بعض الاطباء ، فلكم من شاعر قدر افضالكم على المرضى والاصحاء على السواء ؟

ولكم من شاعر جعل الطبيب عالما وحكيما ورسولا فى آن واحد ، عندما يدرك كرامة مهنته وكل ما تقتضيه ! واذا كان الاصطلاح العربى ماضيا على التوحيد بين الطب والحكمة فينادى الطبيب « حكيما » ألا ترون فى بيان الشعراء وتوقيع اسجاعهم ما عمل على حفظ تلك العادة التقليدية ونقلها من جيل الى جيل ؟

□

وبعد هذه العوارض فلنلخص :

البيئة المعنوية الصميمة كانت لعائشة فى كتبها وأوراقها ، وفى الكتب التى تقرأ ، وفى الاوراق التى تحبر . ففيها كانت تجد التعزية ومنها المعونة . واذا اصابها الرمد شكت بلغة التوقيع !

اذا شكت الورى سقم العيون
فانى أشتكى ألم العيون
أبيت كواله أضناه وجد
أنادى منجفونى ! من جفونى!
فلا جفن يطاوعنى فأبكى
ولا صبر أزيل به شجونى

واذ طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يطلب الحبيب الغالى :

أمس الكتب من شغفى عليها
وأبلى حسرة من سوء حالى
وأندب مهجتى حبا لأنى
حرمت بدائع السحر الحلال

وليست لتشغف فريدة . بل هى ككل محب تريد عند حبيبها مثل ماعندها . فتنيل الاوراق والمحابر والاقلام روحا تحس وتشوق وتبكى :

نعـانى أبيض القـرطاس لمـا
جفانى اليوم نور الاسـودين
وقـد جفت دواتى وهى تبـكى
لما قد راعهـا من طول أينى
وأقـلامى قـد انشـقت لأنى
حرمت مساسـها بالاصـبعين

كذلك كان وسط عائشة من أرواح المؤلفين والشعراء ومن نفثاتهم ، من أرواحهم كان لها أسرة تناجيها . فتتحدث اليها وتصغى حينا بعد حين .

وفى تلك «الغربة» التى تأوى اليها أرواح الخواطر كتبت أشعارها العربية المجموعة فى ديوان «حلية الطراز» وديوانها التركى والفارسى « كشوفة » و « نتائج الاحوال » ورسالة صغيرة اسمها « مرآة التأمل فى الامور » هذه هى بيئتها المعنوية المحبوبة

حبها لاسمها

والاسم ٠٠ أليس هو أول علامات الفرد فى جماعتـه ؟

« على أى شيء يحتوى الاسم ؟ » يسأل شكسبير بلسان جولييت ومن منا لم يتساءل عن اهتداء البشر الى التسمية وعن رائدهم فى ذلك ؟ ألا تصغى الى همس خفى وراء الاسم ، والكنية عند سماعها للمرة الاولى كأن لهما ذاتا خفية وراء المعنى الظاهر ؟ أوليس من هذه الروحانية المستترة أستخرج معنى الحساب بالارقام والحروف ، الذى لايستهان به فى أصوله الفيثاغورية ؟

الا أن الشاعر العربى القائل « الاذن تعشق قبل العين أحيانا » عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت له فى لحظة الهام واشراق

راجع ماشئت من الاسماء التى تعرف أصحابها معرفة شخصية أو معنوية ، تر استحالة تبديل اسم بسواه٠ كأنما تلك اللفظة التى يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة ، أصبحت جزءا أساسيا من ذاتيته ، أوصارت على الأقل من أدل الدلائل عليهـا . وفوق ذلك فان معنى الاسم الواحد يتغير باطلاقه على أشخاص مختلفين ٠ هـذا شيء يعجز الوصف الا اننا نشعر به بجلاء. ترى الأن شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الاسم بامتزاجها بها ؟

ان ما يحدو بى الى هذا الشرح هو شغف عائشة باسمها، شغفها بأسمائها الثلاثة ، فانى لم أر فى مطالعاتى كاتبا يشبه عائشة من هذا الوجه ، لا فى الشرق ولا فى الغرب

شغفت بكل اسم من أسمائها الثلاثة ورضيت بها جميعا فى بيئتها المعنوية فلم تنتحل اسما جديدا . وأحسنت توزيعها اذ خصت شعرها العربى باسم « عائشة » وشعرها التركى والفارسى باسم « عصمت » حتى لتكاد ترى هذه الكلمة فى ختام كل قصيدة من قصائدها «كشوفة» وخصت اسم عائلتها بنثرها

ولماذا هذا الشغف ؟ لكأنها متينة الشعور بالصلة بين المسمى واسمه . أو كأنها تذكر قولا مأثورا عند بعض المشارقة ، وهو ان الاسم ينزل على صاحبه من السماء ! أو كأنها تطرب له لأنه اسمها ليس غير ، وأنه أول علاماتها بين الناس ! أو كأنها تتشبه بداهة بذلك الفيلسوف الهندى، يقضى الوقت الطويل مكررا لنفسه اسمه حتى تنكشف له حجب الغيب فتستيقظ ذاته البصيرة العليمة رائية مايجرى على بعد مسافات ، سامعة ما يقال فى البعد السحيق! جميل معنى « عائشة » وجميل معنى « عصمت » أما « تيمور » ـ فعلى عهدة من شرح لى وفسر ـ فلفظة تركية أصلها فى اللغة العامية « دمير » . ومعناها الحديد الصلب الذى لم يصقل بعد . ولذلك يخطىء من يطلق هذه اللفظة على تيمورلنك للتصغير أو للاختصار . لأن معنى « تيمورلنك » نصل السيف المصقول

على اننا قبل الانتباه لمعنى هذا الاسم نتأثر بوقعة المرضى للسمع • وهو يمثل (على مايلوح لى)مزيجا من نبرة الامر العسكرى وأبهة وقورة رزينة • تمسها كآبة طفيفة ووداعة

وبعد ، أيتسع معنى الاسم فتكون كلمة تيمور رمزا الى أن الطبيعة النسوية المصرية بدأت تصقل بعائشة ؟

لكنها لم تأخذ الاسم كما هو بل أطلقته على نفسها بصيغة النسبة • فاذا بها « التيمورية » وفى هذه الايام حيث صارت الالقاب والنعوت طوفانا يغمر الصالح والطالح على السواء أصبح عدم اللقب لقبا وغدا التجرد من النعوت نعتا • فجمل بنا أن نوجز فى نعت الشاعرة المصرية وأن نسميها ، حينا بعد حين ، بهذا الاسم الآخر الذى أحبته ووضعته فى فم أشخاص يستشهدون بأقوالها ويضربون بأشعارها الأمثال « التيمورية »



الفصل الخامس

شاعرة بثلاث لغات

عبقريتها اللغوية

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها المصرى . وبالتركية لغة آبائها ، وهى لغة لا يزال التخاطب بها فى بعض الاسر ذات الاصل التركى . وقالته بالفارسية التى هى لفئة من أدباء العرب والترك لغة « مدرسية » ، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين . والسبب فى ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ

ليس بوسعى درس شعرها غير العربى لجهلى اللغتين اللتين كتب بهما . على انى اذكر هنا شبه شهادة سمعتها عرضا من شقيقها احمد تيمور باشا . وهى قول المغفور له السلطان حسين لسعادته انه « يفكر فيه كلما رأى ابنته قدرية تقرأ فى ديوان السيدة عائشة » . وهناك شهادة مسجلة فى آخر الديوان المذكور « كشوفة » ، وهى رسالة من « ايران دولت عليه سى مصر قاهره قونسولى سعادتلو دوقتور ميرزا محمد مهدى بك افندى حضرتلى »

ولكن هل تعنى الشهادة والانكار دواما كل ما يرصف فيهما ؟ نقرأ أحيانا وصف بعض نتاج الاقلام عندنا فنحسب اننا مقبلون على مثل ما ابرز اوربيذس ودانتى وشكسبير . فنحملق بالعيون والقلوب فاذا بنا نطالع شيئا حسنا قد

يجوز « تشجيع » صاحبه . أو شيئا غير حسن يتحتم ان يحرم كاتبه من الفاكهة والحلوى طيلة اسبوع على الاقل

لنكونن اذا من انصار اللاشهادة ما بقينا فى هذه الفوضى الاطنابية . غير اننا لا يسعنا الا الاعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب فى لغات ثلاث

لا يذهلنا الآن ان يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات او أربع ، وان يتكلم باعة الدكاكين وغلمان البواخر والمقاهى والفنادق بما يربو عليها ، لعلمنا انهم لا يستعملون الا الكلمات المألوفة التى تفى بالاغراض السطحية . لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الامم . بيد انه ندر حتى بين مشاهير الشعوب من الافذاذ من عرف اكثر من لغتين معرفة عبقرية

▭

عبقرية اللغات عبقرية مستقلة . هى حذق عميق رشيق ينفذ فى أرواح الشعوب ويأوى اليها ، ثم يتحول اتساعا وعلوا فيشملها . كأن الفرد الموهوب يتقمص فى كل شعب يدرس لغته فيتوحد واياه حيا بحياته ، ناطقا بلهجته ، مدركا منها الخصائص والمستعصيات . ويفسر الروحانيون هذه الموهبة بما يفسرون به المواهب الاخرى والعبقريات . اعنى نظرية الاعمار المتكررة بالتناسخ والتجسد بين شعوب مختلفة .

وقبل الالماع الى الشعر العربى والكلام عن شعر عائشة اعلم أن قولى لن يرضى انصار القديم ولا أنصار الجديد . ولما كنت من ألين الطبائع عريكة كنت مستعدة

لتغيير فكرى بشرط ان يقنعنى السادة المثقفون . وبعد فلنبدأ متوكلين على الله

ليس أعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر . اصحيح ان الشعر كله رقة وعذوبة واحساس وموسيقى دون تفكير ومعرفةوبحثوقوة ؟ ام هو مزيج من كل ما تفنيه الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات ، سبك فى قوالب متعددة وفقا لانظمة بديهية تتملص كالشعر نفسه منحظيرة التفهم والادراك ؟

الشعر احد أساليب التعبير عنخواطروعواطف وحاجات ما فتئت الانسانية تستوحيها وتنفعل بها . قليلة هى تلك المعانى الاساسية . بيد ان شعبهاومناحيها تذهبكل مذهب وتضرب من اعماق البحار الى اقطاب الارض ، الى فسيح السموات ، الى رحبات الزمن فى الازل منها والسرمد

ولقد بدأت الهمهمة الشعرية عند كل قوم بوسيلة من الوسائل . عن طريق العبادة ، او تعظيم الابطال ، او شكوى الآلام وبث الغرام . ويظهر ان الداعى اليها عند العرب هو سير الاظعان فى البوادى وانتقال القوافل فى وحدة القفار فاهتدوا الى الحداء مستحثين الابل فى مستعر الرمضاء . فخفت الابل سيرا وانتعش منها النشاط ، وارتاح الحادون الى النشيد يجدون فيه ملهاة عن المشقة وتسلية للتعب والضجر . وتطرقوا بعدئذ الى تنويع الموضوعات فتغنوا بمزايا المحبوب وشبهوه بما يعجبهم من خصائص الحيوان فى الفلوات التى يجتازون . ووصفوا وحشة المضاربالمتنقلة والآثار العافية ، ومرارة الوداع والفراق . وعددوا مفاخر

القبيل والنسب ولذائذ العشق والحرب والغزو والتطعين والاخضاع

وكان من ثروة اللغة فى الالفاظ والاستعارات « لكثرة القبائل المتكلمة العربية » مساعد على التزام البحر والقافية فى تنظيم الحداء . فأوجد هذا فى الشعر العربى طلاوة وغنى فى الوتيرة الواحدة . وجزالة ونكهة بدوية ودقة لفظية تفرد بها دون غيره . ومنه كذلك جميع العيوب التى يسبح فيها شعرنا الا القليل كما فى بحر طام

يصمم اكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر او ذاك من القدماء بدلا من أن يجروا وراء سليقتهم الفردية ، فينجم لنا «طبعات» جديدة مشوهة من الشاعر المقلد . ويخاطبوننا بلغة عصور خلت ونحن اليوم فى عصر الحيرة والترددو الثورة الكبرى . فمن الاعجاب بالجزالة البدوية جاء حب النسخ والتقليد ، وعنه نجم الفقر فى الخيال العربى ، والتقيد باللفظ دون المعنى ، وجمع الفكرة فى كل بيت بمفرده ، والخلل فى اتساق الخواطر ، والقصور فى تنظيم أجزاء الخطاب . حتى انك كثيرا ماترى وجوب جعل آخر القصيدة اولها ومنتصفها آخرها

وعن التقليد نتج حصر الشعر فى ابواب المدح والهجو والرثاء والحماسة والفخر والنسيب ، والحكمة احيانا . وعنه ترتيب الدواوين على الحروف الابجدية لان التوانى وشيوع الموضوع يفقدان كل قصيدة عنوانها كما يفقدان كل ديوان فهرسه . وعنه خصوصا نجم اهمال التاريخ فى قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب . كأن نمو الفكر ومماشاة

التطور دورا بعد دور شيء لا يلتفت اليه . مع ان معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤثرات والسن والبيئة أهمية فى تفهم فصل او كتاب

□

جميع هذه العيوب فى ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق ، حتى ولا تبويب على الابجدية ، ولا اثر للتاريخ فى القصائد – الا القصائد التاريخية فى السطر الاخير منها ! ولئن جرت على عادة العرب فى التعبير ، أى الافصاح عن عواطفها غالبا باستعارات من سبقها ، فالامر الذى يسبينى فى شعرها ان شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات كما يبدو الجسد فى لوحة تصويرية من خلال الانسجة الشفافة وَقدتفلتت من عيب «المفاخرة» بذويها واهلها. ولا هى تبدأ بالتغزل لتنتهى بالاطناب . وليس للاطلال والمضارب ذكر فى قصائدها . واما من حيث الصدق فاظنها فى مقدمة الصادقين من شعرائنا . ومعظم استسلامها للغلو فى جزء خارج عنها وهو شعر المجاملة . بينا هى فى شعرها الذى يرسم نفسها ساذجة مخلصة عذبة تروى حديثها باسلوب ليس هو بالهندسى الذى لا يقدر انصار القديم سواه . انما هو كما يقول الفرنجة روائى (romantique) يجرى عليه بعض شعراء العصر

وهذا الشعر الوجدانى بطبيعته ، الغنائى بلهجته ، ينقسم الى خمسة اقسام كبرى . وهى :

١ – شعر المجاملة
٢ – الشعر العائلى

٣ ــ الشعر الغزلى

٤ ــ الشعر الاخلاقى

٥ ــ الشعر الدينى او الابتهالى

ففى الاقسام الثلاثة الاولى تلقت التأثر من الناس فأعادته اليهم نشيدا . وفى القسمين الاخيرين تلقت التأثر من مختلف الجهات فخاطبت نفسها وناجت نبيها الكريم مبتهلة الى العزة الالهية



شعر المجاملة

لقد حلت المجاملة عندنا مكان الصدق فى امور جمة لخلو محافلنا الاجتماعية من النقد المنصف الحصيف . فان نحن استنكفنا هذا التطفل من المجاملة ، وتأففنا لادمان معالجيها والراضين بها ، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها فى حالتها المعتدلة علامة للثقافة النفسية . المرء يعيش فى بيئته فعليه ان يقلع عما يزعج بنى جلدته لغير ما سبب . لذلك هو يضبط خوالج نفسه ، ويحاول الشعور معهم والتلطف اليهم لا خبثا ولا كذبا بل تمرنا على الغيرية بتهذيب ذاته فى فن الارضاء « والدوزنة » ، واقتبال التضحية الصغيرة التى تسهل بالمران وتتحول شيئا فشيئا الى سرور وقتى مأنوس

استبدل كلمة « نرجو تشريفكم » فى دعوة بكلمة « احضر عندنا يوم كذا ساعة كذا » . تعلم ان الصراحة ليست هى الخشونة ، وتقدر المجاملة المعتدلة وآداب اللياقة . وتعلم لماذا هذه الملح فى حالة الدقة والاحكام تلقى فى اجتماعات الانس رونقا سطحيا مستحسنا

اما عائشة فلديها الوقت الكافى لتتفنن فى تنميق الدعوة على هذا النسق :

لقد من الاله لنا بسعد	واشرقت الليالى بالامانى
وقام الفوز فى الدنيا خطيبا	ودق الحظ اوتار المثانى
وانتم للمنى عين وروح	ومشكاة السرور مع التهانى

لكم صفو المسرة فى انتظار فمنوا بالتعطف والتـــدانى
اجيبوا دعوة الداعى فأنتم فــرائد والمجالس كالجمان

وفى الوليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة الاخرى على لوحة كبيرة :

قد من فضلا بالصفا الفتاح
وضياء توفيق الهنا مصباح
والسعدا قبل والعناية ساعدت
دامت لنا بسرورنا الافراح

وتطرز اسم احد رجال الانشاء :

عــلام الدر يا غواص غالى
فبعه بما يســام ولا تبال
لقــد جاد الاله لنا ببحــر
يجود بدره قبــل السؤال

وتحيى دولتلو حسين باشا « أليس هو السلطان حسين بعدئذ ؟ » لقدومه من السفر فتقول :

لاحت شموس السعد بالاقطار
وجلت عروس الانس للابصار
واستبشرت مصر المنى بقدومه
حسن الخــلائق غرة الانوار
لو للديار فم لقالت مرحبا
بشرى بنير عزتى ومدارى
قد اقبلت بالبشر دولتك التى
هى تاج آمالى وعين فخارى

اكثر المجاملة فى شعرها لامتداح الخديوين « عشر قصائد

تقريبا » . هاك كلاما حلوا رنانا فى تهنئة الخديو بالعودة :

كللت تاج البدر قربا بالشرف
مذ حل فى مصر ركابك وانعطف
طربت بمقدمك السنى بلطفه
مصر السعيدة والسرور بها هتف
وازينت بكر الحبور واصبحت
مجلوة بين الرفاهة والترف
وتجملت مصر بما جاد الهنا
ورخيم مطربها على عود عكف

فى منتهى اللطف هذان البيتان لا سيما الثانى . وفى الشطر الاخير نفحة شعرية منعشة . وهذا مثله

وتراقصت مهج النفوس لبشرها
كبلابل غردن فى روض انف
اضحى يقول بسعد بابك نيلها
اقبل على بحر الوفاء ولا تخف

□

أكل هذا محض رغبة فى المجاملة والارضاء ؟ بل فيه بعض الصدق . ان للأعياد العمومية والاحتفالات بهجة و « جوا » ينفث فى الجماهير فكرة ويبث فيهم توقعا . ويخلق فى ذوى الشعور المتيقظة مختلف العواطف . فكيف لا تتأثر المرأة المحجوبة اذ تمر فى مركبتها المسدولة الاستار بين معالم الزينة والالوية والانوار وصفوف الجنود وقرع الطبول ؟ كيف لا تهتم بالذات العلية التى تهتز البلاد لحركاتها وهى القريبة اليها بمنصب ابيها ، المدينة لها بعض الشىء

بمرتبة اسرتها ، الملمة ببعض احوالها بالاختلاط بنسائها ؟ فكما تهنىء خديويا بالعودة تهنىء الخديوى التالى توفيق باشا بالتولية :

تيجان يمن الصفا اضحت تكللها
يد السرور بفوز دائم بهج

والسعد اشرق نورا والسما غنيت
عن نور اقمارها والارض عن سرج

تقلد النـــير الدرى توليـــة
ضياؤها سوى الاصلاح لم يهج

هذا الخديو الذى قرت بموكبه
عن الزمان و قالت للهدى ابتهج

يسوس بالعدل والانصاف أمته
ويبذل الفضل والجدوى لكل رج

والدهر رنم بالبشرى يؤرخه
يا مصر قد زانك التوفيق بالبلج

(سنة ١٢٩٦   ٣٤١ ١٠٤ ٧٨ ٦٢٧ ١٤٦)

واذ يمر الخديوى ببنها العسل تنظم هذه الابيات لتكتب على لوحات الزينة :

البشر أجرى ببنها انهر العسل
والنصر اضحى بتوفيق السعود جلى

وافى «الخديوى» فأضحى نور بهجتها
كالبدر كالتم أو كالشمس فى الحمل

ما ثم ارض سقاها غيث مقدمه
الا وفازت بزاهى الانس والجذل

تهلل القطر بشرا من زيارته
وايقن القوم حسن الفوز بالامل

وحين مولد ولى عهده :

قرت عيون للسعادة بالصفا
مذ بشرت بسمى عم المصطفى
عباس اشرق بالمعالى نجمه
من نير التوفيق سعدا اشرفا
رقصت بمنبتها الغصون بشارة
بقدوم من بوجوده دهرى صفا
قالت ميامن بشره تهن الورى
فالامن والتوفيق فوزا اخلفا

الا ان هذه اللهجة تصطبغ بالجد فى قصيدة الترحيب بالخديوى بعد الثورة العرابية :

الله اكبر يـــوم آب عزيزنا
عيـــد كبير زانه التشريق
وافى الخديوى الفخيم المرتضى
رب الفخـــار عزيزنا توفيق
رفعت له الاعلام يوم قدومه
وبدا لهـــا فى الخافقين خفوق
وسرت بأرجاء البلاد مسرة
من عطرها روح النسيم عبيق
عزفت له الافراح الحان الهنا
وبدا يشير لحسنها التصفيق

ومن ثم تمضي فى انكار تلك الثورة التى لم يرض عنها الخديوى :

ولك السيادة ليس ينكر أمرها
الا عـديم العقـل أو زنديق
قدحت بأكباد العدا نار الغضا
واشتد ما بين الضلوع حريق
كفروا بأنعم فيض جدواك التى
تربو على قطر النـدا وتفوق
ظلموا نفوسهم بخدعة مكرهم
والمكر يصمى أهله ويحيق
فرقت شمل جموعهم فمكانهم
فى الابتعاد وفى الوبال سحيق

هذه مصارحة خطيرة وهى الغمزة السياسية الوحيدة فى كتابات التيمورية اذا استثنينا مشايعتها للعرش فى قصائد الثناء . مشايعة فيها تتلخص عاطفتهـا « الوطنيـة » وبها تحب جو « مصر السعيدة » ونيلها الفياض ، وألحان أفراحها . تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسـطة الخديوى الذى ترى فيه أقدر عامل على ذلك ، ليس لانه مصلح أو خير بطبيعته ، بل لأنه صاحب الاريكة . فكما انه فوق رعاياه فى المكانة فهو كذلك لهم فى الصلاح والعدل المثل الاعلى

والتيمورية فى هذه « المحافظة » السياسـية متفقـة وطبيعتها . لاننا رأينا فى ما مضى وسنرى فى الباقى من آثارها انها غير ثائرة

شعرها العائلى

أليست المجاملة وحب التساهل لتيسر العلاقات بين أعضاء البيت الواحد ، وتحل من المشاكل ماقد لايفلح فى حله الصراحة والعناد ؟

تكاد تتوحد العاطفة والمجاملة فى بعض شعر عائشة العائلى • لأن الملاينة تتخذ لهجة أقرب الى النفس فى مثل ترحيبها هذا بولادة شقيقها :

غنى فؤاد الأم أهلا بالذى
مذ جاء اشرقت المنازل بالهنا

وفى قولها يوم بدأ يقرأ ، كأنما هى رات فى المستقبل المرتبة العلمية التى هو بالغها :

لاح السعود وأسفر التوفيق
وتلا لنا سور العلا توفيق (١)
رقم الفقيه له على لوح الهدى
أقبل ، فانك للنجاح رفيق

وفى وصف هدية بعث بها خطيب شقيقها الى عروسه :

تهادينا الزهور فعطرتنا وللنسمات تعطير مضاعف
سألنا ما الذى أزكى شذها
فقيل لأنها نفحات «آصف» (٢)

---

(١) اسم شقيقها تيمور باشاهو أحمد توفيق تيمور ، ثم تغلب اسم أحمد ، وبه عرف (٢) هو آصف باشا

وقولها فى ختان ولدها :

دقت له العليـاء دف سروره
لمـا زها عن ثغره البسام
وغدت تعـوذ نجمه لمـا بدا
ودعته فى افق المسرة سـامى
رمقته أحداق الورى من بشرها
وصنعت له الارواح فى الاجسام

هذا شعور الأم . ولأنها ترمق ولدها بالبشر ، وتصفو له روحها، فهى لا تقبل فى الثناء عليه بعدئذ معارضة ولا انكارا فتكتب اليه مرة تطلب كتاب « درة المختار » :

طروس حـررت فورا　　فحاكت نسـمة الاسحار
سأودعهـا تحيـات　　بها عرف الصبا قد سار
الى عالى المـكانة من　　سما فى المجد والمقـدار
له همم اذا ظهـرت　　توارت دونهـا الاقمـار
وارجو من معاليكم سريعا　　درة « المختـار »

وتكتب اليه مرة أخرى مشتاقة صادقة ، وفى السطر الاخير مثال من ذكرها لاسمها أما الشطر الاول فمر الذ أحاديث الامومة :

قلبى لبعدك لم يحمد مجاورتى
وفر نحو حبيب فى حشاه ربى
قل بطلعتك الغـرا وعزتهـا
واحكم بما ترتضى متمت بالارب
من غير قلب أتبقى روح عائشة
لا والذى زان هذا المجد بالادب

واصدق صورة من شعرها العائلى فى المراثى ، ولا سيما مرثاة ابنتها المحبوبة توحيدة وهى القصيدة الوحيدة تقريبا التى يذكرها الناس من شعرها زاعمين انها خير ما نظمت التيمورية ، وحكمهم فى هذا حكمهم فى كثير من الشؤون : يقرون رأيا ما ، ويعززونه ، ويتعصبون له قبل الاطلاع على سواه ، بروح التساهل ، وقبل أن يصرفوا ولو دقائق فى البحث والمقارنة

واضيف الى هذه المرثاة مرثاتها للشيخ ابراهيم السقا الذى يلوح كأنه عضو من عائلتها المعنوية . فتتوجع لفقده :

الدهر ابدل راحتى بعناء
واعتاض صفوتنعمى بشقاء
شجن عرى الاسلام بالظمأ الذى
حل العرى بضمائر العلماء
أضحت حصيدا أرض أزهرناالتى
كانت به كالدوحة الخضراء
تشكو الاوام وما بها من مطفىء
مذ غاب سقاء العلى بالماء
قلبى عليه غدا كجمرات الغضا
والوعتى من حره وشقائى
فلأذرفن أسى عليه مدامعى
ما دمت عائشة بخدر فنائى

اسمها من جديد ، يصحبه وصف كارب من التحجب اذ تدعو خدرها « خدر فنائها »

اما فى مرثاة والدتها فتطلب للرأحلة الرحمة ، وتهنىء القبر بنزيلته المخدرة التى لم تسفر لغريب :

يا قبر ، فاهنأ بالتى أحرزتهـا
هى درة بالدرج لاحت تسطع

يارب ، فاجعل جنة المأوى لها
دارا بطيب نعيمهـا تتمتـع

واسكب على حصبائها سحب الرضى
فضلا، وان تك قد سقتها الأدمع

يهنأ لأرباب النعيـــم نعيمهم
طوبى لمن من نهرهم يتضلع

وبعد هذا الامتثال تنتفض صـائحة بالموت الذى فطر حشـاشتها . الا أن صيحتها تظل استرحـاما . وما أبلغ وصفها الردى « بمنهـل التشتيت » على قيـاس النظرة الدنيوية التى تختبر به الفراق المر ، دون الامل الروحى الذى يرى فيه وسيلة الاجتماع والاتحاد

يامنهل التشتيت، حسبك ما جرى
فعيوننـــا قد اقسمت لا تهجع

ذهب الأحبـــة واستقل ركابهم
يا ليت روحى ودعت اذ ودعـــوا

يا ليتهم طلبوا الفـــداء فهـــذه
روحى ولكن « ليت » ليست تنفع

وفى رثاء شقيقتها :

أحيبتى ، كيف الرضـا بتشتت
قد ضـــر بالاخـــوان والاولاد

وفى هذه المرثاة ترتفع التيمورية لحظـــة الى ما فوق الندب والرثاء :

يا من أتى للقبر يقرأ طرســـه
مهلا ، فليس كتابه بمـــداد
وأعد له نظـــرا فان حروفه
كتبت بذوب العين والاكبـــاد

وفيها هذا البيت الذى يسجل بداهة وجوب انحـلال الصور الكونية ليتسنى لها أن تتألف وتتشكل مرة أخرى. فبتم بذلك ناموس من أكبر النواميس فى الوجود :

وجدت ، وأعدمها الزمان حياتها
ما أقرب الاعدام للايجـــاد !

□

تولد المرأة أحيا صنوف التوليد المحسوس . فأحوال حياتها جميعا تتهيأ لهذه الوظيفة وتتجه نحوها اتجاه الانهار الى البحر . ولقد شبهت الام دواما بالطبيعة ، تلك الام العظمى . وكان ما يرمز الى أمومة الطبيعة ووظيفة التوليد الرائع فيهـــا ، أنثى فى جميع أديان الاقدمين . فايزيس المصريين « تلك الالاهـــة التى بدأت التوليـــد الالهى ، الام الالهية التى ولدت جميع الاشياء » واللواتى قمن مقامها فىالميثولوجيات الاخرى ، يرمزن الىالمرأة القادرة بأمومتها ؛ الممثلة الطبيعية بوظيفتها ، القائمة حلقة مغناطيسـية بين الحياة والحياة

فما هو شعورها يوم ترى مخلوقها جامدا فى حضنها هامدا ؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذ متهدما فى نظر الثكلى ، وأن ينقلب الروض قفرا ، وأن يغشى النور ظلام

ولا عجب أن يكون غمها الاكبر الذى لا يحتمل أن يظل هذا الكون المتهدم لها عامرا لسواها ، ويظل هـذا النور منتشرا ينير الناس ويفرحهم فى حين يدلهم الجو حولها

أى مأساة هذه التى تتصدع من جرائها الخليقة ؟

أغمضت توحيدة عينيهـا ، فكل الحيـاة عند عائشـة سواد وتهدم وتفجع وتناقض اليم

ستر السناء وتحجبت شمس الضحى
وتغيبت بعـــد الشروق بدور

ومضى الذى أهوى وجرعنى الاسى
وغدت بقلبى جذوة وسـعير

طافت بشهر الصـوم أكواب الردى
سـحرا وأكواب الدموع تـــدور

فتناولت منهـــا ابنتى فتغـيرت
وجنات خد شأنهـــا التغيـــير

فذوت أزاهير الحيـــاة بروضـــها
وانقـد منهـــا مائس ونضـــير

يا روع روحى ، حلها نزع الضنا
عما قليـــل ورقهـــا ســـتطير

▭

من أرق قصائد تنسن الانجليزى وادلها على شاعريته الحنون قصيدة « ملكة مايو » وهى عادة جرى عليهـا

الانجليز فى بعض المقاطعات أن يختاروا كل عام من بناتهم ملكة للربيع

فاذا شئت ان تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ قصيدة تنسن المذكورة The May Queen وقابل بينها وبين مرثاة التيمورية لابنتها ضاربا صفحا على الاتســـاق التام فى قصيدة الشاعر الانجليزى ، وعن نقيض ذلك فى قصيدة الشاعرة المصرية . تجد العاطفتين تتلامسان فى غير موضع. واذكر ان عائشة كانت تجهل الانجليزية، وان هذه القصيدة لم تنقل فى عصرها الى العربية . واظنها لم تنقل بعدئذ وقد اكون مخطئة

فتاة تنسن تقول مودعة والدتها ساعة الموت : (١)

You'll bury me, my Mother, just beneath the hawthorn shade,
And you'll come sometimes and see me where I am lowly laid,
I shall not forget you, Mother. I shall hear you when you pass,
With your feet above my head in the young and pleasant grass.
I have been wild and wayward, but you'll forgive me now;
You'll kiss me, my own Mother, and forgive me ere I go;
Nay, nay, you must not weep.

و « توحيدة » تقول :

والقبر صار لغصن قدى روضة
ريحـــانها عنـــد المـــزار زهـــور

---

(١) « ادفنونى يا أماه ، فى ظل أشجار الزعرور
« وزورينى أحيانا حيث أنا متوارية
« لن أنساك يا أماه ، وعندما تمرين
« سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف »
« كنت شرسة عنيدة الا انك الان تسامحيننى
« قبلينى يا أماه : وسامحينى قبل أن أمضى
« لا ، لا . لاينبغى أن تبكى »

وتقول :

أماه ، قد عز اللقـــاء وفى غــد
ســـترين نعشى كالعــروس يســـير
وسينتهى المسعى الى اللحد الذى
هو منزلى ، وله الجموع تصـــــير
قولى لرب اللحد « رفقا بابنتى
جــاءت عروسا ساقها التقــدير
وتجــلدى بازاء لحــدى برهـــة
فتـــراك روح راعهـــا المقـــدور
اماه ، لا تنسى بحــق بنــوتى
قبــرى لئلا يحـــزن المقبــور

فتاة تنسن تذكر حبيبها فتقول :

And say to Robin a kind word, and tell him not to fret:
There's many worthier than I would make him happy yet.
If I had lived—I cannot tell—I might have been his wife:
But all these things have ceased to be; with my desire of life.

وتوحيدة لا تذكر اسما ، انما تشير الى الزواج الذى كان قريبا لولا الموت :

---

(١) « قولى لروبن كلمة مواساة وقولى له أن لايحزن
« كثيرات غيرى خير منى قد يجعلنه سعيدا
« لو عشت لربما كنت أصير له زوجة
« الا أن جميع هذه الاشياء تلاشت مع رغبتى فى الحياة »

امـــاه ، قـــد سلفت لنا أمنية
يا حسنها لو ســـاقها التيســـير
كانت كاحلام مضت ، وتخلفت
مذ بان يوم البين وهـــو عسير
عـــودى الى ربع خــــلا ومآثر
قـــد خلفت عـــنى لهـــا تأثير
صونى جهاز العرس تذكارا ، فلى
قـــد كان منــــه الى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة تنسن الصـــلاة ، وتبارك الكاهن الذى أسر اليها بكلمات الرحمة والسلام فافهمها عذوبة الغفران ، وحبب اليها الموت بعد ان كان مخيفا ، واكد لها ان المسيح الذى « مات لاجلها سيبلغها السماء » كذلك تطلب توحيدة ان يزار قبرها وان تتلى الصلوات على روحها لتحظى برحمة الرب الغفور :

امـــاه لا تنسى بحـــق بنـــوتى
قبرى لئـــلا يحـــزن المقبـــور
ورجـــاء عفـــو ، أو تلاوة منزل
فســـواك من لى بالحنين يزور
فلعلمـــا أحظى برحمـــة خـــالق
هـــو راحم ، بـــر بنـــا ، وغفـــور

الأم عند تنسن لا تسمعنا صوتها . اما عائشة فتنتحب وتعود فتبكينا :

بنتـــاه ، يا كبدى ولوعة مهجتى
قد زال صفو شـــانه التكدير

لا توصى ثكلى قد اذاب وتينها
حــــزن عليك وحسرة وزفير

قســـــما بغض نواظـــر وتلهفى
مذ غـــاب أنســـــان وفارق نور

وبقبلتى ثغـــــرا تقضى نحبــــه
فحرمت طيب شــذاه وهو عطير

والله لا اســـلو التــلاوة والدعا
ما غردت فوق الغصون طيور

كلا ، ولا أنسى زفير توجـــعى
والقـــد منك لدى الثرى مدثور

ابكيك حـــتى نلتقى فى جنـــــة
برياض خـــلد زينتهـــا الحـــور

انها تؤمن بالخلود ، لذلك يعقب تفجعها الخضوع ، وبينا هى تقول بلسان الجسد :

قد كنت لا ارضى التباعد ساعة
كيف التصبر والبعـــاد دهور ؟

ولهى على « توحيدة » الحسن التى
قـــد غاب بدر جمالها المســـتور

اذ بها يتجه انتباهها الى ما وراء الموت فتذكر ان الفراق الطويل والانفصال المحسوس لا يجردانها من فخر الامومة واغتباطها . فتقول بامتثال حزين وقد نما املها بالاجتماع المنتظر :

هــذا النعيم به الاحبـــة تلتقى
لا عيش الا عيشـــــــــة المبـــرور

وتشكر الله على كل حال :

قلبي وجفني واللســان وخالقي
راض وباك شــاكر وغفــور

ابنتها ان فقدت بها « كبدها ولوعة مهجتها » فأنها رغم ذلك، الفتاةالصغيرة التي لاتستطيع انتكون لوالدتها الحصن الحسي والمساعد الذي يخفف الاثقال ويروح الأعمال. صدر والدها هو لها ذلك الملجأ في الحزن واليأس ، ومن قلبه التعزية ومن مقدرته المعونة فيوم تفقده تفقد الشاعرة هذه الشفقة التي تلذ لها من أبيها ، وتذلها من الناس ولهذا تقول في رثائها له :

يا حسرة أبنته اذا نظرت لهــا
بمماته عـين مـن البأســاء
يا كنز آمالي وذخــر مطالبي
وسـعود اقبـالي وعين شـفائي
يا طب آلامي ومرهم قرحــتي
وشذاء روحي ، بل ونهـر غنــائي
أبتاه ، قد جرعتني كأس النوى
يا حـر جـرعته على احشائي

وهذا الانين يستحضر لذاكرتي انين أبن أخيها المرحوم محمد تيمور فيما بعد عنـد ضريح والدته في سـاعة غم متفجع قانط :

امــاه ، قومي واســمعي امـاه ، مألك لا تجيبي ؟
ارأيت دمـع محـاجـري وسـمعت يا أمي نحيبي ؟
هل راع قلبـك ما لقيت من النـوائب والكروب ؟

ان الوجـــود صحيفــة مــلأى باسرار القـــلوب
خلفـتنى للهـــم فيـــه وللشـــدائد والخطــوب
امـــاه ، انى قـــد طرقـــت حماك فى اليوم العصيب
ابكى على ســعدى كمــا يبكى الغريب على الغريب
أفنى الغـــرام تجـــلدى وفقــدت فى أهلى طبيبى
هـــذا جـناه أبى عــلى ومــا جنيت على حبيب

والفرق بين التيمورية وابن اخيها فى هذا الانتحاب ان الشاعر الفتى همه الشـكوى وطلب الشـفقة اذ ليس من يسمع له ويواسيه غير الأم فى قبرها

أما عائشة فتعود الى انتباه لطيف فى حسرتها ، وهــو دليل رقة نسائية حلوة ، تعنى برضى والدها ميتا وحيا . وفيه كذلك دليل على الاثر الذى تركه الوالد الصالح الحكيم فى حياتها

يا ليت شعرى ، حين ما حل القضا
هل كنت عنى راضيا أم نائى ؟

▭

أسمعت القصب يشدو ؟

ذلك القصب الشرقى الساذج الذى سبق شدوه جبروت الفراعنة وجلال الاهرام وكتمان الهياكل ــ اسمعته يشـدو تحت النخيل على ضفاف النيل عند حلول الشفق ؟

لكأن شدو عائشة شدوه

انها تجرب مزمارها فى المجاملة ، وتنتحب فيه بالرثاء ، لتبلغ منه اشجى قرار واحر زفير فى شكايات الغرام . وتسمو به بعدئذ مرفرفة كالالحان المجنحة ، فى الآبتهال الى المهيمن على دوران الاكوان وحظوظ بنى الانسان

الفصل السادس

أشعارها

في الغزل . والأخلاق . والدين

شعرها الغزلى

«الحب عارض فى حياة الرجل ، ولكنه حكاية حياة المراة»
كلمة شهيرة قالتها امراة من أنبغ نساء العالم فى فيض عاطفتها واتساع تفكيرها وفى مقدرتها الادبية، هى مدام «دى ستيل» الفرنسية التى نالت شهرة غير مختلسة ، ومجدا مستحقا ، واعجابا توافق وعبقريتها النادرة . وقدعاشت تلك المرأة الممتازة ، عمرها وعواطفها تذوب جوعا ، والظمأ الى الحب الهانىء يبرح بها ، ولم تفهم معنى السعادة ، على قولها ، الا فى الحب المتبادل الذى تم لها فى الاعوام الاخيرة من حياتها

المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المراة سيرها الطبيعى ابتداء بحب الوالدين ، الى حب الاخوة والاخوات، الى حب الاقارب والاصدقاء ، ثم يتجه الحب فى حينه الى الخطيب الذى تطلب فيه المراة طبعا الحبيب ، ثم حب الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها

وبرغم أن هذا الحب نسيج حياة المراة ، فان الرجل الذى اعتاد اذلالها باسم القوة والحصانة ، سد فى وجهها منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة ، وانكر عليها الافصاح عما ينبىء بأنهما ذات يقظة مستقلة . وكل ما اقتحمته فى عالم التعبير خلال العصور المظلمة يكاد

يتلخص فى وصف النبات والحيوان فى حكايات قصيرة ، ولم تنظم الا الاناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، فاذا خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم فى عيشة الخلاء ، أما النساء العربيات فى الجاهلية وفى صدر الاسلام فلم ينظمن ــ على ما أعلم ــ الا فى المدح وفى الرثاء وما اليهما . وقليل ما ينسبونه من شعر الغزل والنسيب الى بعض الشاعرات

ولو اننا رجعنا الى أوائل القرن الماضى ــ وهو عهد مدام دى ستايل نفسها ــ يوم أنشأت المرأة فى الغرب تنزع الى تحرير فكرها واطلاق براعتها ، وقابلناه بعهد عائشةوالمرأة حبيسةخدرها وراء الحجاب، لوجدنا شاعرتنا فى طليعة نساء العهد الجديد المتعرفات حقهن فى حرية العواطف ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية ، هى فى طليعتهن ، ليس فى الشرق فقط ، بل فى العالم المتمدين كله

▭

لقد قالت الكثير من شعرها الغزلى محاكاة وتقليدا ،كما اعترفت بذلك فى تصدير بعض أبياتهاحيث تجد : «وقالت متغزلة فى غير انسان والقصد تمرين اللسان » . ولكن ، أتكون الابياتالتالية فى بساطتها «لتمرين اللسان» كذلك ؟

أشكو الغرام ، ويشتكى	جفن تعذب بالسهر
ياقلب ، حسبك ماجرى	احرقت جسمى بالشرر
رام الحبيب لك الضنى	لم ذا وأنت له مقر ؟
لكن تعذيب الهوى	ما للشجى منه مفر

ويبدو شعرها في اصدق لهجاته عندما تذكر هذا السمير الذي يضرمه الشوق (وكثيرا ما يذكيه الصد في بعض الامزجة الى حين) وهي تستوحيه في أكثر غزلها :

حر التهابي ووجدي واحتراق دمي
بفيح وادي الغضا عمن سواك خفي

هاكه في هذا المخمس الذي سمعتهم ينشدونه في سورية:

ظبي ، في قلبي عليك حرارة
تطفي لظاها ــ ان سمحت ــ زيارة
حلو الرضاب ، أفي الوصال مرارة ،
أم في التفاتك للشجي خسارة
وجميع ربحي في الهوى أنفقته

ومن مربعاتها :

لما نأى عني وبان صدوده
والقلب أصبح لا يفيق عميده
ملك الهوى رقي وحق وعيده
والحب خط بالجباه قديم

بهذا الشطر الاخير هي تردد الفكرة الشائعة في الشعر العربي ، وهذه الفكرة حقيقة محسوسة ، فحواها ان بين جماهير الناس أشخاصا خلقوا للحب وكانوا مفطورين عليه أكثر من غيرهم ، وقد قدر على أولئك الاشخاص أن يعرفوا بعضهم البعض وان يبحث الواحد منهم عن الآخر ، أللسعادة أم للشقاء ؟ سيان ! وانما للحب وفي سبيل الحب على كل حال . وتمضي عائشة في اتمام مربعاتها ، وكلها غنائية تجمع بين بساطة اللفظ وسهولة المعنى وفتنة الغرام الضرورية لتوقيع الانشاد :

يا ليل ، ها أنا فيك ساه ساهر
ولعزة المحبوب شاك شاكر
يا ليل ، قد أيقنت أنك كافر
اذ لم يكن لى من دجاك رحيم

يا ليل ، انك فى الفعال منافق
هذا تسهده ، وذاك توافق
واذا لضيم أن فيك العاشق
ضاعفت شكواه وأنت بهيم

وهذا الخطاب لليل يذكرنى بأبيات لابن أخيها ، المأسوف عليه محمد تيمور الذى رأى فى الليل عكس ما رأت فخاطبه مطمئنا اليه شاكيا غدر الناس :

أنا ، يا ليل ، أناجى منك سلطانى الرحيم
أنا فى الدنيا وحيد ولى الناس خصوم
راقهم ، ان جد أمر برق غدر لا يدوم
ورأيت الغدر نارا ورأوا فيه النعيم
هدموا بنيان ودى وانمحت منه الرسوم
ومليك الليل بر هو لى أم رءوم
وهو لى خل أمين ولافكارى نديم
أنا ، يا ليل ، أناجى منك سلطانى الرحيم

ارتكبت قبل اليوم جريمة الصراحة اذ قلت ان الخيال الشعرى عندنا من الفقر بحيث ترى المعانى نفسها مكررة فى كل جيل بنفس الالفاظ القديمة . وقد بحث السادة

الشعراء عن مزيد من القيود فاهتدوا الى مايسمونه « المعارضة » التى تفرض عليهم التزام البحر والقافية كما مهدوا بالتزام اللفظ والمعنى مع شيء من التبديل في الوضع !
فهل ، بعد هذا ، من لوم على عائشة اذا هي وقفت عند معالم الغزل المألوفة التى قصرت في الكثير من شعرنا على التشبب بالعين والحاجب والخال واخواتها ؟ وشهدت عائشة جميع الاجيال السالفة تلوم العواذل راجية أن يرد كيد اللاحي الى نحره . ففعلت هي فعلتهم جميعا فلامت العواذل، راجية أن يرد كيد اللاحي الى نحره . وتغزل الشعراء بالخمرة، وزعم المتصوفة منهم انهم يرمزون بها الى الحب ، واحيانا الى الحب الالهي ، فملام لاتتحداهم عائشة ؟

جهل العواذل ماتريد بشربها نفسي وما تلقى من السكرات
وتسليا عن جفوة أم صبوة لفؤادى المضنى من الحسرات
شتان بين ظنونهم وسرائرى الله يعلم منتهى غاياتى

كذلك تحدث الاندلسيون في شعورهم واصطناعهم تفهم أسرار الطبيعة وتأويل معانيها ، فوصفت حركات حدثت للزهر وللماء لان المحبوب ، الذى تسميه التيمورية بالاسم الطامى في الشعر العربى ، أى الغصن ، بدا في الروض . فاهتز لظهوره كل ما استطاعت الفاظ الشاعرة أن تهزه من الموجودات . فاذا بها تتساءل :

ان كان ذلك حال الزهر من عجب
فكيف حال أخى وجد واشواق ؟

كل هذا التعمل عندها وعند من قلدتهم ، بل عند الكثيرين من كتاب الغرب ، كان مقدمة طويلة لعهد « الرومنتزم » ، أى عهد دخول الشعراء والادباء الى نفوسهم

يلمسون جراحهم بأيديهم ويستوحونها ، ويتعرفون حالاتهم النفسية فيتمكنون من النظر الى الطبيعة تلك النظرة النافذة الرائعة فيكتنهون فيها مغرى المعانى ويرون فيها فاتن الصور والالوان فى الحزن وفى الابتهاج جميعا . وما ذكر الاحساس بالطبيعة ونزعة الرومنتزم ، أى النزعة الوجدانية الصميمة فى الادب ، الا ذكر جان جاك روسو موجد تلك النزعة فى آداب الغربية . فسرت من بعد الينا ، وتعلم الجيل الجديد من شعرائنا تعرف مافى نفوسهم وما فى الطبيعة من تغير وتنوع فى الظواهر وفى الخوافى . بيد ان الرومنتزم ، ككل شيء آخر فى هذا الكون ، أفسح المجال لمذاهب أدبية أخرى تطورت منه ومن فروعه فأصبح اليوم فى حكم « القديم » فى أوربا ، بينا هو وغيره من شتى المذاهب الادبية مازال شائعا عند الجيل الحاضر من شعرائنا وأدبائنا

□

ولكن عودة الى التيمورية ! اننا رايناها متكلمة بلهجة الرجل ، وذلك راجع طبعا الى أمرين اثنين ذكرتهما قبلا ، وهما :

أولا — عادة الضغط على عواطف المرأة واخراس صوتها . فكان أيسر لها أن تتخذ لهجة الرجل المصرح له بما حظر عليها

ثانيا — لانها كانت مقلدة . فقد قلدت الرجل فى معانيه كما قلدته بداهة فى لهجته . الرجال أساتذتنا ومهذبونا ومكيفونا ، عليهم نتلقى دروسنا ، وعن كتبهم وكتاباتهم نقتبس المعرفة ، وبذكائهم نستعين لصقل ذكائنا وانمائه ، ومنهم نستلهم كل فكر عظيم وكل عاطفة جليلة . لقد احتكر الرجال جميع أنواع القدرة والابداع والتفوق ،

فما نكاد نفتح عيوننا واذهاننا حتى نرى جميع مناحى السلطان والسيطرة والنفوذ ممثلة فيهم . بيد ان الطبيعة النسائية تظهر عند عائشة بعض الظهور فى الخجل الذى يشعر المرأة أحيانا بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب ، كما يشعرها بأن هذا الرجل الذى اختارته هو الذى يملأ الدنيا حياة ويفيض عليها الرونق والنور :

أنا المسربل بالاعذار من كلفى
اذا التقينا ، وانت الرائق الوسم

وتظهر طبيعة المرأة ظهورا أتم فى هذا الخجل الصريح :

وهذه كلمات قادها شغف
اليك ، لولاه لم تبرز من القلم
جاءت ، ومن خجل تمشى على مهل
تخاف عند لقاها زلة القدم

وقد يكون خير شعرها الغزلى وأصدقه فى القصائد التى قيلت خلال رمد عينها وبعد الشفاء منه ، يوم عادت الى مشهد النور ورؤية وجوه الاحباب . ومنها :

بكعبة الحسن انسانا أرى فسلوا
عينى التى طالما ضلت من الغسق
وخبرونى ، أانسانى صفا ودنا
لمستهام رماه البين بالارق ؟

وما لبث ان عاودها الرمد فانقلبت تشكو الظلام الذى هى فيه والالم والحرمان جميعا :

فوا أسفى على انسان عينى غدا فى سجن سقم واعتقال
حجبت بسجنه عن كل خل وصرت مخاطبا صور الخيال

ثم ترسل الامنية الواحدة المتضمنة امانى اخرى :

فيا انسان عين غاب عنهـــا وبدلني به طـول المـــلال
عسى ألقاك مبتهجا ، معافى ، وأصبح منشدا «أملى صفالى»
لتهنأ مقلتى بسـنى حبيب بديع الحسن ، محمود الوصال
وانظم أحرفى كالدر عقـــدا به جيد الصحائف كان حالى

ثم تصف ماتقاسى من العذاب فى الظلام والارق :

فكم أمسى بما ألقى حزينـا وبين النـوم معترك وبينى
أبيت ومؤنسى الخفاش ليلا وحالى معـــه شر الحالتين
فذاك بنـــور عينيه مهنى ولى أسـف بحجب المقلتين
وأبسط للظـــلام أكف بثى وأشـــقى لوعــة بالظلمتين
ترانى معرضا عن كل ضـوء فهل خاصمت نور النيرين ؟
ينافرنى السـنا فأفر منـه كأن الضـــوء يطلبنى بدين
وأجنح للظـلام جنوح صب دنا لحبيبـه بالـــرقمتين

وجاء يوم شفيت نهائيا فمضت تنشد « أملى صفا لى ! » على نحو ماتمنت :

روحى بقربك قد نالت من الارب
ما ترتضيه ، فمرها فى الهوى تجب
فضع يمينك فضلا فوق مهجتها
تكف بالـكف ما عانته من وصب
لاتنـكرن مـــزايا الحب ان لـــه
فى الـراحتين لـراحات من التعب

هذا معنى آخر مقتبس كسائر معانيها ، الا انه فى الاصل ذا مغزى بعيد . ففيه اشارة الى مغناطيس اليد كم هو مؤثر فعال بين المحبين والاصدقاء ، حتى بين الغرباء الذين لاتنافر بينهم . وهو قاعدة علمية تقوم اليوم عليها ، اى على

مغناطيس لمس اليد ، طائفة من تجارب التنويم المغناطيسي وكيف لايكون لكف الحبيب هذا التأثير ، والحب محور الحياة ؟

صب لقربك بالحياة يجود
اني له بعد البعاد وجود
بختام طبع الحسن قد طبع الهوى
فى قلبه « هذا هو المقصود »

ولكن العواذل – لحاهم الله ! – عادوا الى الاصطياد فى الماء العكر ، بتعبير كتابنا السياسيين فى هذه الايام . فهل من انتقام اتم من رميهم بالكفر ؟

كأنهم بعنادي عصبة كفروا ماحل فى قلبهم صدق واسلام

أما وهناك مايؤدى الى خيبة الامل وصد العاطفة ، فتسخط شاعرتنا ورغم الالم والمضض ، تجنح الى الاعراض والنسيان:

غضضت نواظرى عن غصن قد
وعفت حنين قلبى ، وهو روحى
فلو عقب الهوى قلبى ، وقالت
اذن روحى اروح ، لقلت روحى !
وافكارى تسوح لفرط شوقى
فأطوى لوعتى ، واقول سوحى !
لظبى قد بكت عينى ، وقالت
أنوح الى النشور ، فقلت نوحى !
وذاك لميله شرقا وغربا
لنفحات الغبوق مع الصبوح

كان الناس فى عصر عائشة يتلقفون الادوار والمواليا ،

تلك الاغانى الشعبية التى يفهمها الجميع ويستلذونها بلا اجهاد ، لانها تخاطب ألصق العواطف وتحدث عنها باللهجة العامة . وتلك الاغانى ، كمجموعة المغنى العربى القديم والحديث ، تكاد تنحصر فى شكوى الحب ، ولوم الحبيب ، ووصف جماله ودلاله ، وعبادة مانثر على وجنتيه من خال وشامة ، والتحرق من جراء هجره ، والابتهال اليه والى الايام والقدر ليروا جميعا مايحسن صنعه لتسوية الامور ... وقصائد عائشة الغزلية لاتعلو هذه الاغانى الا بكونها منظومة . لذلك سهل انشادها . لاسيما الرباعيات التي يغنونها فى سورية وفلسطين لبساطة معانيهاوتراكيبها. كذلك سمعت ادوارا ومواليا تنشد فى اجتماعات الانس وحفلات الافراح، ولم يدر المنشدون أنهم بانشادهم يلحنون روح التيمورية . كما أن كثيرين منا عندما ينشدون « قدك أمير الاغصان » و « الحلو لما انعطف » وغيرها ، يجهلون انهم منشدون شعرا لاسماعيل صبرى باشا . وأن كثيرا من الادوار الشائعة هى من صنع أدباء كبار نحسبهم تحصنوا فى معاقل اللغة الفصحى مزدرين بالادب الشعبى البليغ . وهاك دورا من وضع عائشة :

حياتى بعد بعدك نوح   ووعدى ضيعك منى
دانت أنت الغذا للروح   وليه ترضى البعاد عنى ؟

وغيره :

أنا أحب الحب   نفس الغرام روحى
وصبحت أول صب   الناس ترى نوحى
فى القلب من جوه   والسر هو هوه

وهذا من المواليا :

يا ألف أهلا ، مليك الحسن أهو قابل
وكل مضنى بحسن الامتثـــال قابل
هاروت لحاظه أتى بالسحر من بابل
كم من ضنى تاهت أفكارو وقلبو داب
ياقلب ، تقبـل كدا ؟ قال لى نعـــم قابل

▭

اشتهر كاردوتشى الايطالى بموهبته الشعرية وبموهبته النقدية معا . وكان يؤثر عنه كذلك ازدراءه بشاعريةالمرأة . وله فى ذلك رأى سار مسير الامثال ، وهو أن اثنين عليهما أن لايعالجا الشعر وهما : الكاهن المسيحى والمرأة . ولكثيرين من الناس فى مواهب المرأة رأى لايختلف عن رأى كاردوتشى ولست أدرى هل قدر لهم ماقدر لكاردوتشى فحمله على تغيير رأيه مما سجله بقلمه على نفسه فى اغتباط يوم وضع المقدمة لمجموعة الشاعرة الايطالية آنى فيفانتى . ليس اظرف من اندحار هؤلاء العظماء بعد تعنتهم فى بعض الآراء غير الناضجة ، ولا أصرح من اعترافهم بالخطأ اعترافا خلى من التحفظات والاستدراكات والمداورات التى تشغل جماعة من الكويتبيين وذوى المدارك المحـــدودة ، أولئك الذين كأنهم لايفتأون يقولون : أعترف ، ولكنى لا أعترف . صحيح ، ولكنه غير صحيح . جميل ، وهذا مع ذلك غير جميل !

عدل كاردوتشى رأيه بعد مطالعة أشعار اليزابث براونج الانجليزية ، ومدام ديبورد فالمور الفرنسية ، وآنى فيفانتى الايطالية ، مصرحا بأن لدى المرأة شيئا تقوله غير ماتنسخه عن الرجل . ولا عجب فى قوله بل العجب فى قول المناقضين .

لانه مهما فاخر الرجل بعبقريته التى نحبها ونعجب بها ونستحثها فيه ، فهو لايستطيع أن يزعم أنه الطبيعةالبشرية كلها . لان الطبيعة لم ترده أن يكون أكثر من النصف الواحد من الذات الانسانية المكتملة . فاذا به هذا النصف النشيط البارع الجميل الذى أوجد لنا مانتمتع به اليوم من محاسن الحضارة والثقافة ... ومن الباقى الذى نشقى به وهو غير خير وغير حسن ...

أما النصف الآخر فهو المراة ، النصف الذى ظل الى اليوم مهملا ، ان لم يكن مكموما مسحوقا . النصف الذى قد يذكر أحيانا بصفته غير موجود فى ذاته ولا حق له على الحياة والحرية ، وكل الغرض منه هو اخراج النسل ليس غير . هذا الراى شائع كثيرا ، بيد انه لايتناول الاقلية المنصفة من الرجال الذين هم فى الحقيقة نبهونا الىنفوسنا ، ولهم الفضل الجزيل فى تشجيعنا وأرشادنا ومساعدتنا

بدهى ان المرأة فى بادىء الامر تقلد الرجل تقليد التلميذ للمعلم ، تقليد الصغير للكبير . بدهى أن تفعل ذلك فى مجموعها المستيقظ . ولكن تتفلت من كل تقليد واحتذاء صاحبات العبقرية منذ ظهور نزعتهن ، مثيلات سافو ، ومدام دى ستايل ، ومدام دى نواى معاصرتنا التى فازت العام الماضى بجائزة الآداب من الاكاديمية الفرنسية ، ومتيلدا سيراوو التى يشبهها بول بورجيه ببلزاك الكبير فى رواياتها المشبعة بحياة الشعب وبوصف عاداته وانفعالاته وآلامه

ان عواطف المراة وتأثراتها شىء بشرى مشروع . وبالمران تتعلم الاستسلام لطبيعتها النسائية والركون اليها فى

الاهتداء الى التعبير ، بعد ان لجمت خوالجها قرونا طوالا .
والصيحة التى ترسلها الآن ستفتح فى ادراك البشر وفى آدابهم أفقا جديدا

اثبت هذا فى ايمان وهدوء ، دون تحيز ولا تعنت

انما نحن من الذات الانسانية الواحدة الجهة الماثلة ازاء جهة الرجل ، فنختبر اذن بفطرتنا ما لايستطيع الرجل ان يعرفه ، كما أن اختبارات حضرته تظل ابدا مغلقة علينا .
واذا قدر للمرأة المصرية ان تلج باب الشعر والادب وتمعن فى المسير فى ماوراءه من فسيح المسافات كان مرجع الفضل الى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادة غير المطروقة ، وبكرت فى ارسال الزفرة الاولى أيام كانت تكتم الزفرات وكان ارسال الصوت فى عالم الادب يحسب للمرأة عارا وجريمة . ويوم ينمو الادب النسائى فى هذه البلاد فيجىء حافلا بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد عائشة — هذه الاناشيد الساذجة — لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة التى همهمت لنا بها أمهاتنا ، شجية مطلوبة كشدو القصب القائل فى ظل النخيل : ان وراء المشاغل والهموم ، يلبث القلب البشرى معذبا بظمأ لايرتوى ، مثقلا بحنين لايعرف الاكتفاء والنفاد ...

شعرها الاخلاقى والدينى

كنا فى الفصل السابق فى أنس وبهجة وكأننا فى ليلة من ليالى الاعراس . لان شعر عائشة الغزلى كان مستحضرا لنا نغمة القصب ، ونقرة الدف ، وشدو المغنى . أما هذا الفصل ، فانه سينتقل بنا من « مجلس الانس الهنىء » الى مايشبه خطبة اخلاقية . فكأننا اليوم نقول مع عائشة :

تركت الحب لاعن عجز طول   ولا عن لوم واش أو رقيب
ولا من روع زفرات التصابى   ولا من خوف أجفان الحبيب
ولا حذر الفراق وخوف هجر   به تجرى المدامع كالصبيب
ولكنى اصطفيت عفاف نفس   تقـــر بصفوه عين الاريب

والواقع أننى لم أكن مخيرة فى انتقاء هذا الموضوع ، بل أنا مرغمة عليه بحكم سياق البحث وانسجامه . أما عائشة فتقول انها « اصطفت عفاف النفس » ولماذا ؟

وذاك لاننى فى عصر قـــوم   به التهذيب كالامر العجيب

نستطيع أن نجعل هذا البيت حدا فاصلا بين مانظمته التيمورية للمجاملة والمحاكاة والرثاء وتبيان العواطف وبين مانظمته لتأدية رأى لها فى شئون المجتمع ، وتبصر فى أحواله وأخلاقه بين طوارىء الزمان وتقلبات الايام

ورأيها وتبصرها لاتتفرد بهما ، بل هما شائعان لاسيما بين الشرقيين . ولكن يهمنا هنا منهما ان شاعرتنا عمدت

اليهما وأخذت بهما ، ولو من وجهة سطحية . ان عائشة لم تتعمق أصلا فى فكرة أو فى عاطفة . بل كانت تكتفى بالناحية المطروقة وترضى لها بالتعبير المألوف . ولكن لاننسين أنهـا المرأة المصرية الوحيدة فى عصرها ألتى أقدمت على مالم تدرك اهميته يومئذ مئات الاوف من النساء ومن الرجال أيضا

ولقد ألمعت غير مرة فى شعرها وفى نثرها الى مابينهاوبين وسطها من عدم التفاهم . وهاكن أبياتا تدل على ما حاولته فى سبيل التآلف والتفاهم ، فى حين وسطها لم يبذل من ناحيته جهدا ولم يبد لملاقاتها اهتماما :

عقدت عزمى وهم حلوا عزائمهم
وفى الأعـــزائم محلول ومعقـــود
ما طابقوا حين لم يبدوا مجانسة
ولا تشـــابه معدوم وموجـــود
ابدى ائتلافا ويبدون الخلاف ، وقد
غدا لهم فى جيـــوش الهجر تجريد
وكم أقابلهم مستنجـــزا ، ولهم
لسوء حظى ، فى الاعراض ترديد
لو للسعادة عين فى مســـاعدتى
ما كان لى ساعد بالطوق مشدود

هى تعنى أن السعادة لو شاءت ان تساعدها ما كانت أوجدتها مقيدة بقيود هذه البيئة ، خاضعة لظلم الوسط الذى يرهقها . وهنا نتأكد مرة أخرى انها لم تكن سعيدة . وسنفهم شيئا فشيئا أنها كانت تتألم من انفرادها الادبى ، وسط المجهود الذى تبذله فى رجاء ونشاط فيئوب عليها

مقاومة وفشلا . فاذا بها تلقى الينا بهذه النصيحة غير الجديدة :

لاتفرحن بدنيـــا اقبلت وصفت
بكل ماترتضى ، واحذر عواقبهــا !

وعلام هذا التحذير ؟ لان من صفت له الدنيا من ناحية تجهمت له من ناحية أخرى . لان الصفاء نفسه لايدوم ، وقد لا يطول حتى ينقلب كدرا . فخير شيء وسط هذا التحول فى العسر واليسر ، انتهاج طريق العفة والاستقامة والصلاح :

ما الحظ الا امتلاك المرء عفتــه
وما السعادة الا حســـن اخلاق

وهى تعطينا نصائح اخرى لتشرح لنا قليلا ماذا تعنى بالاخلاق الحسنة : فمنهــا عدم الركون الى المملقين ، ومنها الاقلاع عن البخل وعدم التعلق بالمال والقناعة :

رب الدراهم أحصـــاها وعددها
فى حصن أكياسه ألفــا على ألف
والحمد لله اذ عــدى لمسبحتى
وعن سواها ترانى قاصر الطـرف

ومنها حفظ اللسان ، لاننا جميعا بشر تشوهنا العورات :

احفظ لسانك من ذم الانام ودع
أمر الجميع لمن أمضــاه فى القــدم
معايب الناس لايكبرن عن غلطى
اذا نممت بهــا فى محفل الهمم

ومنها صيانة النفس :

وما احتجـابى عن عيب أتيت به
وانما الصـــون من شأنى وعاداتى

ولو كنا فى مجال المناقشة كنا اثبتنا أن الصون لايقوم باسدال الخمار ، كما ان التبذل ليس قائما بالسفور . انما الصيانة والعفة ملكتان نبيلتان من ملكات النفس ، تأخذ بهما المراة بصرف النظر عن زى الثوب وهندام الراس . وسنرى عندما ننظر فى آراء أخرى لعائشة انها ان هى فاخرت بالحجاب فى شعرها فهى تشكوه فى نثرها ، لانه حرمها مجالسة أهل الفضل والادب وحال دون الاستزادة مما ترغب فيه من علم ومعرفة

أما الآن فحسبنا الاصغاء الى بقية ماتقول مفاخـــرة بالحجاب . هى تفاخر، ونحن نوافق على هذه المفاخرة التى نود ان تكون نشيدا للصيانة النسائية الاخلاقية ، ونتمنى وجود هذه الصيانة الابية ، وبأرقى مظاهرها ، عند كل امراة وكل فتاة . وهذه هى أبيات المفاخرة الوحيدة فى شعر عائشة :

بيد العفـــاف أصون عــز حجابى
وبعصمتى اســـمو على اترابى
وبفـكرة وقادة ، وقريحـــــة
نقـــــادة قـــــد كملت آدابى

ومنها :

ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى
وطـــراز ثوبى واعتزاز رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليـا ، ولا
ســـدل الخمار بلمتى ونقـــابى

عن طي مضمار الرهان اذا اشتكت
صعب السـبـاق مطامح الركاب
بل صولتي في راحتي وتفـرسي
في حسن ما أسعى لخـير مآب

□

نيات صالحة وآراء طيبة . بيد أنى اذ أراها مؤكدة المرة بعد المرة ان السعادة فى حسن الاخلاق يخطر لى أحيانا أن اقول : كلامك ياسيدتى على الراس والعين ، لكنى لا أراه متطابقا والواقع . الشعر الاخلاقى غير الشعر الغزلى . هذا يلقى الينا بما شاء من العواطف والخيالات والامانى فيروقنا ونطرب له . أما الشعر الاخلاقى فشىء آخر . انه يلقى على درسا ويختط لى طريقا . فلى الحق أن أناقشه اذا هو لم يفلح فى اقناعى بقوله ان السعادة فى حسن الاخلاق وفى صيانة النفس وفى حفظ اللسان ، الى آخر مايسديه الى من النصائح . فهاك انسانا صالحا لم يجن اثما ، ولا يؤذى أحدا . يعبد الله ، ويسالم الناس ، ويتكل على ذاته فى العمل ليل نهار متبادلا واخوانه البشر منافع العمل وحسناته . ورغم كل ذلك فهو ليس بسعيد ، فى حين فلان ، وهو سىء الخلق لايراعى فى معاملته ذماما ، ولا كرامة ، ولا عدلا ، ولا حقا ، فهو مع ذلك سعيد تبسم له الدنيا ويساعده الحظ فى جميع شؤونه . ثرثار ، طويل اللسان ، طويل اليد ، الاغتياب دأبه ، والنفاق ديدنه ، وبرغم ذلك فالناس له مصادقون واوفياء يعزونه ويكرمونه ويهابون جانبه . فكيف اهتدى الى الصواب وسط هذا

التناقض المبين ؟ علام يرغد المنافقون والدساسون حولى ، وانا من الرغد والطمأنينة محروم ؟ وأولئك الذين يمزقوننى بافترائهم وتطاولهم ، ترين بماذا أجيبهم وكيف أعاملهم ؟

عبثا نلقى على شاعرتنا هذه الاسئلة ، انها لاتعطى عنها جوابا . بل تحدثنا عما تفعل هى عندما تتألم من مثل مايؤلمنا وكيف انها اتخذت من النوائب وسيلة للتشـــــدد والتقوى والتغلب على النفس المتوجعة وعلى العالم الظالم :

كم قابلتنى ليــــال ريحهـــا سعر
بطيئة الســـــير ترمى بالشرارات
لاقيتها بجميل الصـــبر من جلدى
وبت أسقى الثرى من غيث عبراتى
كم أقعــدتنى أيام بصدمتهـــــــا
وقمت بالعــزم مشهور العنـــايات

وأما كلام الناس ، أغبياء كانوا لايدركون فضلها أم كانوا حسادا يتحرقون من تفردها ، فانها تحتمله بتجلد وادب ، ولا تشكوهم لاحد لانها لاتجهل مايصطنعونه من اهتمام فى الظاهر وهم فى سرائرهم غافلون أو مبتهجون . وان هم من تلقاء أنفسهم تعملوا عندها الاهتمام والعطف أو جاهروا باللوم والنقدتظاهرت هى بالرضى وحدثتهم عن «ابتهاجاتها» :

وكم حليفــة ســـعد اذ تعنفنى
تقــول ســـعيكم مذموم النهايات
فأخفض الطرف من حزن أكابده
واهمل الدمع من تلك المقـــالات

ومنها :

ومذ أتت عذلى تبغى مصادرتى
ظلما ، منحتهمو أسنى الكرامات
وكلما عددوا ذنبا رميت به
بسطت للعفو راحات اعترافاتى
ولم أفه لذوى رد لمعرفتى
ان الحبيب حبيب فى المسرات
أقوم والضيم تطوينى نوائبه
طى السجل ، ولم أسمعه أناتى
اخفى الأسى ان حسود جاء يسألنى
لأين تسعى ؟ وأومى لإبتهاجاتى

وعلام هذا الاجتمال ؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ والمغبون ؟ الجواب عندها امتثال كئيب :

أقول للصبر : لا عتب على زمن
أعطى لأبنائه أسمى العطيات

فيحدثها الصبر بحكاية تقلب الأيام ، فتتذوق الحديث كأن فيه بعض التعزية :

فقال : مهلا ، ولا تغررك شوكتهم
فالصحو يعقبه سود الغمامات
فليس كل ملوم دام مكتئبا
وما السعيد سعيد للملاقاة
فدهرهم غرهم جهلا وما علموا
ان الزمان قريب الالتفاتات

بيد أن هذه التعزية لا تطيب خاطرها ولا تقنعها ، فتعود فى آخر القصيدة الى الشكوى والتضرع :

ربى الهى معبـــودى وملتجئى
اليـــك ارفـــع بثى وآبتهـــالاتى
قد ضرنى طعن حسادى، وانت ترى
ظلمى ، وعلمك يغنى عن سؤالاتى

ومنها :

فكيف اشكو لمخلوق ، وقد لجأت
لك الخـــلائق فى يسر وشـــدات
فيا لها من جـــراح كلما اتسعت
أعيت طبيبى رغما عن مداواتى

وهكذا نحن من شعر عائشة الأخلاقى فى دائرة صغيرة لا تنفحنا بمتين الحجة أو بمكتمل الراى القائم بنفسه . بل نعثر فيها على الكلمات المسكنة من صبر وتجلد وانذار بان الأيام متقلبة لا تدوم على حال . ودفعا للألم تتمنى عائشة ان تتجرد من كل شعور وكل رجاء ، وكل اغتباط ، وان لا تنتظر السعادة كيلا تفاجأ بالفشل والخيبة :

فلا تقل لى متاع وهـــو عارية
واليأس عندى راحات اعترافاتى

على ان الراحة الكبرى عندها فى الصلاة وفى الالتجاء الى الله الذى هو وحده يسعد ويشقى . وهذه العاطفة تصل بين شعرها الأخلاقى وشعرها الدينى فتجعل منهما مزيجا واحدا

⊏⊐

لقد تغذت الانسانية منذ فجر تاريخها ، بعواطف أولية قليلة استدرت منها كل نشـــاطها وما فتئت تســـوقها فى

جهادها . وتلك العواطف منها الحسن ومنها السيء . ومن مظاهرها ماهو صالح ومنها ما هو طالح . ومن تمازج هذه العواطف فى نفوس الأفراد وفى نفوس الجماهير تتكون الرغبات والشهوات والانفعالات التى تتلاطم وتتعارض فيما بينها . فينجم عن تباينها ومضيها فى الاسترسال ما نسميه التطور الانسانى الذى نشهد منه هذه الصور الرائعة دهراً بعد دهر فى ازدهار الحضارات ، وفى كل ما يهتدى اليه الانسان من اكتشاف علمى واختراع آلى، ونظام اجتماعى ودولى ، وابتكار فنى وأدبى

ومن تلك العواطف الأنسانية الاعجاب بمكارم الاخلاق الذى نجده حتى عند أحط الجناة غريزة ، ومنها العاطفة الدينية المتلونة بشتى الألوان على تنوع النفوس ، حتى لتبدو أحيانا فى مظهر يزعمه البعض « كفراً » . على أنها متأصلة عريقة فى قلب الانسان الذى يروعه هذا الكون العظيم فيتساءل منذا الذى انشأه . ويذهله النظام الدقيق فى الفلك الدائر ، فى نمو النبات، فى سنن الحياة فيبحث عن الغاية التى من أجلها ينفذ هذا النظام . ويجزع مما يهدده من حاجة وألم ومرض وعجز ونكبة وموت فيلجأ بداهة الى القوة العليا المهيمنة على عوز البشر وبؤسهم ، ويبتهل اليها مستسلما لعوامل رحمتها وأحكام حكمتها . هذه هى البواعث الأساسية للشعور الدينى الذى يسبك فيما بعد كل نفس فى قالبها الخاص . ولقد كانت العاطفة الدينية حية كل الحياة عند شاعرتنا ، وقد سمعت من شقيقها المفضال أحمد تيمور باشا ، انها كانت تقية تصوم وتصلى وتقوم بجميع الفرائض الدينية . على أن شعرها الدينى لا

تعمق فيه ولا روعة . هو كسائر شعرها ، يتناول النواحي المألوفة المتداولة . ويمتزج بالعاطفة الأخلاقية من حيث الاعتراف بالذنوب والرغبة في التوبة ، ومن ثم يبدو فيه الاستعداد لساعة الرحيل ، وذكر هذه الساعة يحملها على وصف ما يجول في القلوب من طمع حيال سرير المحتضر أمام حشرجة النزع ، حتى عند هيل الثرى على نعوش الأقربين . وفي هذه الأبيات سخرية طفيفة في مسن من الكآبة على ما يبذله الحي من مجهودات لحشد المال :

اراك بلمتى ، يا شيب ، عظنى
وقد حان الرحيل غدا ، لعلى !
فاول ما نرى حدث مهول
تهيل ثراه كف اخ وخل
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى
وهم نسبى وابنائى واهلى
وتشتغل البنون بقسم مال
انا من حشده فى عظم شغل

وليست عائشة بغريبة عن الشعور بحيرة النفس وترددها بين ما يخالجها من عوامل الاغراء بملذات العالم وبين نزعتها الى البر والتقوى :

كيف المسير الى ارض المنى وانا
بطاعة النفس فى قيد الضلالات ؟

والجواب في الابتهال الذى الفناه عند عائشة ، وهو الذى يدعو الى نعت هذا الشعر بالابتهالى :

ان كان عصيانى وسوء جنايتى
عظما ، وصرت مهددا بجزائى

فقضاء عفوك لا حدود لوسعه
وعليه معتمدى وحسن رجائى
يا من يرى ما فى الضمير ولا يرى
انى رجوتك ان تجيب دعائى
يا عالم الشكوى وحر توجعى
دائى عظيم القرح ، جد بدوائى !
بحبيبك الهادى سألتك دلنى
لعلاج أمراض وجلب شفائى !

وهذا الشعر المبتهل من شاعرة مصرية شرقية مسلمة يعيد الى ذكرى القديسة تريزا الاسبانية الاوربية المسيحية، التى عاشت فى القرن السادس عشر واسست رهبنة الراهبات الكرمليات ، وقد لقبت « بالعذراء الساروفيمية » نسبة الى الملائكة الساروفيم لفرط تقواها ، ونقاء نفسها ، وروحانيتها الحارة، وشغفها بالسيد المسيح الذى كانت تتخيل انه يتجلى لها ويخاطبها فى ساعات الانعطاف والرؤيا . وقد نظمت شعرا ابتهاليا جميلا فى لغتها الاسبانية ، اشهره نشيد وجيز ترجو فيه من الله ان يمن عليها بالموت لتتجرد من ثوب التراب فتراه عندئذ وجها لوجه . فهى فى ذلك النشيد الملتهب تقول :

نشيد القديسة تريزا

« أحيا دون ان أحيا فى نفسي ، وانتظر حياة هكذا رفيعة ـ حتى أنى لاموت لأنى لا أموت

« وأنى ليزيد فى كلفى

« ان ارى الهى لدى سجينا حتى انى لاموت لأنى لا اموت

« انظر كيف اذوب شوقا الى رؤياك ، ولا طاقة لى على الحياة بدونك ، حتى انى لأموت لانى لا اموت

« فمتى يتيسير لى ، يا الهى ، ان اقول القول الفصل بانى اموت ، لانى لا اموت » !

ولكن الفرق بين الشاعرتين ان القديسة المسيحية واثقة من رضى الله عنها ، عالمة بحبه لها ، وانما تعذبها قيود الجسد التى تشد وثاقها بالأرض وتحول دون فناء روحها فى روح الله . ففى صيحتها شىء من التدلل على المحبوب ، وفيها كذلك صدحة الشوق والنشوة والظفر ، اما التيمورية فمبتهلة فى لهجتها

ولكأنما كانت تيأس لولا رحمة الله الواسعة ولولا شفاعة النبى الكريم الذى تلوذ بحماه وتترنم بمدحه وتمجيد امته :

طه الذى قد كسى اشراق بعثته
وجه الوجود سناء الرشد والكرم

طـه الذى كللت انوار سـنته
تيجان أمته فضـلا على الامم

نعم الحبيب الذى مـن الرقيب به
وهو القريب لراجى المجد والنعم

روحى الفداء ، ومن لى ان اكون له
هذا الفداء ، وموجودى كمنعدم

وما هى الروح حتى آفتديه بها
وهى البغاث بغـار الظلم والظلم

ومنهـا :

ولا يحيط به مدح ولو جعلت
جوارحى السـنا ينطقن بالحكم

وما سوى عز كونى بعض أمته
ذخــرا أفوز به من زلة الوصم
الا التماسى عفوا بالشـــفاعة لى
من خاتم الرسل خير الخلق كلهم

▭

رأينا فى هذه المقابلة الصغيرة ، انه كما يتلاقى البشر فى ابحاث العلم وضروب الفن والأدب والفلسفة والحكمة ، وكما يتفاهمون بالحب وابتغاء الخير العام وبالمعــانى الانســانية الرفيعة ، فكذلك تتوحد عواطف البر والتقوى وحب الله فى قلوب الصالحين

امرأتان مختلفتان دينا وجنســا وقارة ، تعيشــان على تباعد ثلاثة قرون وتزيد ، فى بيئتين، كل منهما غريبة عن الأخرى ، وهما مع ذلك تناجيان الها واحــدا لا أله الاه ، وتصليان صلاة واحدة حافلة بالأمل وبالاتكال وبالثقة فى لغة الغرب وفى لغة الشرق على السواء

وبين ما يبدو الآن فى الشرق من جديد العوامل والنزعات، نجد الدعوة الى وحدة قومية ووحدة انسانية مع احترام العقائد الدينية ، وترك الحــرية لكل فرد يتمتع بها دون التعدى على حرية أخيه ودون أن تعمل هذه العقائد المتباينة على تفريق الكلمة وتمزيق الشمل . وأسجلها مفخرة لعائشة ان تجىء بقــول له ، فوق قيمته التاريخية والأدبية ، مــا يمكننا من هذه المقابلة الجميلة فيتيح لنا الألماع الى هــذه الوحــدة النبيلة التى يتفشى الآن حبها فى ربوعنا ، والتى يتصافح عندها ويتصافى بنو الانسان

الفصل السابع

نثرها

١ ــ كتاب « نتائج الاحوال »

٢ ــ كتاب « مرآة التامل فى الامور »

نتائج الاحوال

أما الشعر فقد قرضته عائشة تحديا لبعض من سبقنها من « ذوات الخدر والاحساب » ، أو كما قالت :

ما قلتــــه الا فـكاهة ناطق   يهـوى بلاغة منطق وكتاب

واما النثر فقد عالجته لملء ساعات الفراغ الطويلة التى لم تكن لتستنفدها محبة الابناء وواجبات المنزل ، ولياقات المجتمع ، وفروض العبادة ، ونظم القصائد ، وقد شعرت قليلا قليلا بأنها تحب ان يكون لديها بلاغ تؤديه الى قومها . واما هذا الكتاب خاصة « نتائج الاحوال » ، فهى تطلعنا فى مقدمته على بواعث انشائه وتخبرنا كيف كانت دواما تميل الى استقصاء احاديث السلف وتحب مســـامرة الـكبار ومجالسة العجائز لتسمع أخبارهم « والتقط من تلك النوادر أعاجيب القدر » . ولما تم لها ذلك وأنشأت تطالع « من التواريخ مافدرت قدرتى أن ندانيه ، وما امكن فكرتى الخامدة أن تصل الى معانيه » . « ولما تأملت فى ســير سير الامم ، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم ، وقد شاهدت والله فى نفسى صدق هذا الخبر ... فدعتنى الرأفة بكل مغبون ألقى مالقيت ، ودهى بما به دهيت ، الى ان أبدع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عنـد تزاحم الافكار .. »

اذن فلتعمد هى الى تخيل الخيالات ونسج الحكايات . ولن

يكلفها ذلك اكثر من جمع شتات ماقر فى ذهنها من حكمة العجائز وما يتطابق واياه من تجاربها الشخصية ، لتدوين آراء شائعة مقبولة فى احوال هذا الناس : فى السعد والنحس، فى الصبر والمواساة ، فى الخيانة والوفاء ، فى الحب والكراهة ، فى القضاء والقدر ، فى التربية والاخلاق ، وفى ما يستتبع المصائب والرزايا فى النفس الرشيدة من تقويم ورجوع عن الغى والضلال

« نتائج الاحوال » هو بالجملة من رواسب تلك القصص التى سمعناها فى طفولتنا ، خلال الليالى الساهرة فى زمهرير الشتاء وهزيم الرعد وتدفق الامطار . فتمتعنا منها بلذاذتين اثنتين : لذاذة التحرز من غضب الطبيعة وصقيعها فى ملجأ دافىء ، وللذاذة الاستماع الى سير الملوك والابطال والجان والعاشقين يتصرف بهم القضاء والقدر ، لينتهى بنا الامر فى الغالب الى اندحار الشر وانتصار الخير

فاذا تطلعت الى خلاصة « نتائج الاحوال » فهب انكَ تصغى الى فى ليلة صاقعة ممطرة وأنت فى ثوب الطفل الغرير ففى هذه الحال تتذوق حكايتى بما فيها مما وعيته من أقاصيص الماضى الساذج

▭

هذه ككل قصة قديمة تحترم نفسها ، فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم ، وعريس وعروس ، وغير ذلك كثير . واليك أسماء أهم الشخصيات :

العادل ــ ملك عظيم صالح منصور

الممدوح ــ ولى عهده ، محور آماله ومطمح آمال الشعب. وهو بطل الحكاية

عقيل ــ الوزير . وهو واسع الادراك حاذق التدبير ، وقد فوض اليه الملك ان يدير شئون الدولة

مالك ــ النديم . ويظهر أنه على غير ما يستحسن فى النديم من عذوبة المنطق وبراعة الظرف ولطف السمر « ولم يبد من أولئك شىء فى سياق القصة» فهو ذو مواهب خلقية كالوزير من حيث الاستقامة والوفاء والحصافة وسعة الادراك وحسن التدبير . قد يحار علماء النفس حيال مثل هذا التركيب السيكولوجى ، لكن حيرتهم لاتغير الواقع

دشنام ــ قيم على خزينة المال

غدور ــ قيم على خزينة السلاح

بوران ــ ابنة ملك العجم وخطيبة الممدوح . مشهورة بسداد الرأى ، وذكاء العقل ، وحسن الادارة

أما « حبكة » القصة فمنشأها ان الملك مولع بولده ، شأنه شأن الكثيرين من الآباء فى الشرق من حيث يسىء فهم المحبة الوالدية ويحسبها قائمة فى انالة الولد جميع مطالبه وعدم التعرض لصد أهوائه . أخذت تظهر نتائج هذهالتربية السيئة فى سلوك الغلام وفساد أخلاقه ، فلم يجرؤ على لفت الملك الى ذلك سوى الوزير والنديم . لكنهما لم يحدثاه فى ذلك مباشرة ، بل فى حديث رمزى طويل ذكرا فيه حديقة فيها غصن لم يحسن تقليمه . فأدرك الملك اللبيبغرضهما ، وأفحمته حجتهما ، وندبهما لتثقيف ولده وتعليمه . فقاما بذلك خير قيام ، وبدت نتيجة جهودهما فى زمن قصير بتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح الىوجهة الصلاح والسجاحة . ولا تسل عن سرور الملك ! انه عبر

عنه تعبيرا فاخرا بالطريقة التى ألفها ملوك الحكايات فى عطفهم على من يحسن فى سبيلهم البلاء ، ويخدمهم فى صدق ووفاء

وازاء هذين الرجلين الامينين لمولاهما ، ولوظيفتهما ، وللمصلحة العامة « اذا جاز مثل هذا التعبير فى الحكايات القديمة » نجد مثالا شنيعا للحسد والخيانة والدسيسة فى القيمين دشنام وغدور . فقد أخذهما الاستياء من نجاح الوزير والنديم . فدأبا ليفسدا عليهما الامر بتملق الامير الصغير وايغار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن اندية اللهو والمرح ، ويبعدان بينه وبين والده بحجة التعليم والتهذيب ، بينا هما فى الواقع يكيدان له لانتقاص سطوته وكرامته وتنغيص حياته

وتبع ذلك جهاد صامت عنيف بين الفريقين : فتارة ترجح عند الامير كفة الاخلاص والاستقامة ، وتارة يستسلم لصوت الوشاية والافتراء . وتم الفوز للدساسين فى النهاية ، لان الحقيقة كثيرا ماتتخاذل وتتوارى فى تعمل الغيرة والتفادى ، وكثيرا مايظفر الخونة والمحتالون ، فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين ، وقاطعهما ، وتوعر خلقه ، وتفاقمت شراسته . واراد الوزير أن يتلافى الامر بالتى هى أحسن ، فاقترح على الملك أن يزوجه . فوافق الملك على هذا الاقتراح . وأنفذ وزيره الى ايران يفاوض ملك العجم فى خطبة ابنته بوران المشهورة بسدادة الرأى ، وذكاء العقل ، وحسن الادارة . ومضى النديم الى الشين « الصين ؟ » لاحضار أمتعة الزواج وجهاز العروس

وخلا الجو للدساسين قرب التلميذ المنقلب عريسا بين

عشية وضحاها . فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده ، وتعاون الغم والشيخوخة على تهديم صحته واشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت ؟ انه يستدعى اليه ولده ليزوده بالنصائح . وذاك مافعله الملك العادل . بيد ان المنية عاجلته قبل ان يمعن فى الكلام ، فقضى نحبه بين ذراعى ولده . مأسوفا عليه من هذا الولد المسكين

وهنا ــ وقد سنحت للدساسين الفرصة التى تربصا لها طويلا ــ قام القيمان بتمثيل الفصل الثانى والاهم من دورهما . فأوهما الشعب بأن الملك مازال على قيد الحياة ، غير أنه لمرضه وضعفه عهد اليهما هما القيمان بادارة شئون الدولة وشئون ولده . وأنفذا الفتى الى المجلس يحمل كتابا مزورا فى هذا المعنى ، والفتى فى حزنه على والده مشرد الفكر ، لايعرف مضمون الكتاب . ومن ثم يجهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوضان أمر الفتك به الى عبدين يقودانه الى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة . ولكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيكتفيان بابعاده الى مكان لايستطيع العودة منه الى المدينة

ومن الناحية الاخرى ، لايفوت القيمين الافاكين ابلاغ الوزير فى ايران ان الامير عشق صبية من بنات الافرنج وجرى فى اثرها ، فعلى الوزير ان يمضى فى العالم ليبحث عنه . ويكتبان الى النديم ان الامير خرج الى الصيد فشرد به الجواد « وانساب ذاك الفرس الى ضيعة حرسها عبيد » فليجدن اذن فى طلبه بين العبيد . أين ذلك ؟ هنـا على مقربة منا ، يا أصحابى ، فى السودان ! أجل ، فى السودان

وهاهوذا صاحبنا الوزير يطوى البرارى والقفار ، وينتقل من دار الى دار ! وهاهوذا صاحبنا الآخر ، النديم ، يذرع شواطىء النيل فى أعاليه ، ويفتش فى أقاصى السـودان وادانيه . وينقضى زمن غير قليل وجميع أقطاب القصة « بما فيهم انا التى أقرؤ لالخص » فى مثل تيـه بنى اسرائيل يعمهون ! وليس من سبيل يتبع فى « نتائج الاحوال » سوى اشتباك القصة الصغيرة بالقصة الصغيرة ، وارتباك هـذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات « الف ليلة وليلة » و «كليلة ودمنة » . واذ كنت انا وأصدقائى أشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض فلا نفوز بغير التطوح والتنائى، كم ذا سألت الله ان يأخذ بيدنا فيجمع شملنا ويرد لهفتنا ! لاسيما الفتاة العروس بوران التى ماعلمت بما جرى لخطيبها حتى طلبت الانفراد فى عزلة عن الناس . واراد والدها ان يزفها الى ابن اخيه ليتدارك الحال ويحول مجرى أفكارها قبل الاستفحال فى الجوى . ولكنها أبت ، وفرت الى حيث لايعثر عليها ! لانها على نحوماينشد الشيخ سلامة حجازى فى الجرامو فون :

عرفت هواكم قبل ان أعرف الهوى

فصـادف قلبا خاليـا فتمكنا

وكم كان يغيظنى اننا بينا نحن « أى أنا والصلاح من أهل الرواية » تعبث بنا الاقدار وتجد بنا النوى فنتقلى على مثل جمر الغضى ، اذا بالغاصبين الخائنين يسرحان فى بغداد ويمرحان ، لهما تضرب المدافع وتنشر الالوية ، ولهما تقدم الرعية فروض العبودية والاكرام !

بيد ان للايام دورتها ، واخذت تتحول الامورعلى مايرام .

فتلاقى بديا الامير والنديم فعجلا بالذهاب الى ايران ،حيث تسوق الفتى اشواقه . فهو كعروسه ، قد وقع الهوى من نفسه مكانا بعيدا ، وظل فى مصائبه ويأسه يلازمه خيال الفتاة التى وعدوه بها دون ان يعرفها . وكان للامير والنديم فى ايران رحلات عديدة غير موفقة . الى ان اقبلا اخيرا على جبل شاهق فاذا هناك اشارة تركها لهما الوزير تدعوهما ، فيما لو اهتديا اليها ، الى العراق مباشرة

فعادا مباشرة الى العراق واجتمعا بالوزير وهو فى زى ناسك ، ولك ان تطلق هنا العنان لمخيلتك فتتصور ما شاء لك التصور من سرور وحبور ، من بكاء واغماء ، يتلوه يقظة ، فسلام ، فكلام يناسب المقام . وانضم الى هؤلاء الثلاثة العبدان اللذان ابقيا على الامير ، وكان القيمان الفاصبان قد ارادا الايقاع بهما لانكشاف فعلتهما ، فاخفق الخائنان ونجا العبدان الوفيان . وكان هذا التلاقى مبعثا لمؤامرة طويلة ، وقد آلى كل من المتآمرين على نفسه ليصرعن الآفة بالآفة ، ويفلن الحديد بحديد مثله ، وآزرهم طبيب الملك ، ودبر لهم الحيل ، فكان الفوز حليفه فى كل ما دبر . فأوفد الى اصحابه المتآمرين عددا من الرجال ، وحفروا نفقا يمتد الى قلب المدينة ويفضى الى خزينة الدولة ! وأبى السعد الا أن يكلل مساعيهم بالنجاح والا ان يهيىء لهم الافراح والليالى الملاح ، فلم شملهم بالعروس بوران ! لست بواصفة لك مشهد اجتماع العاشقين السعيدين بعد طول الفراق ! حسبى أن أتمنى لك مثل هذه الساعة مع من تهوى ... وعندما آن الاوان ليثوب كل من الحبيبين الى رشده ، جاهرت الفتاة برغبتها فى العودة

الى الوطن ليزفها ابوها الى خطيبها بالأبهة اللائقة بالملوك

« لا بد لى أن اتوصل الى بلادى بشرف ـ تقول بوران ـ وأدخل قلعة ابى بصيانتى . ثم يبعثنى هو الى هذا العزيز بصيانتى »

وكذلك كان

وعاد الاصحاب بعدئذ الى اتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الامير منصورا وقبضوا على الخائنين . وتتابعت الحوادث والمشاهد بمثل سرعة الصور المتحركة ، منها : موكب الملك ـ المدافع تقصف والطبول تدوى ـ هيجان بغداد وأفراحها ـ فوز الحق والصلاح وانهيار الغدر والطلاح ـ مجيء العروس فى موكب بديع ـ المناداة بالممدوح خليفة واجلاسه على « التخت » ـ أفراح ـ انوار ـ أهازيج ـ زينات ـ شموس مجلوة ـ بدور منيرة ـ وفوق كل ذلك خطب وأشعار ! وبات العروسان يديران كؤوس المراد السكرية ويتداولان أقداح الوداد العبقرية »

وفى القصر أقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة الجلوس المجيد والزفاف السعيد . فتقاطر المهنئون ، وتليت رقاع التهانى ، ووزعت الهدايا من العروس على أرباب الدولة . وجادت قريحة الملك فانبرى يخطب فى الجموع شاعرا ناثرا ، ويمتدح النوائب التى هذبته وعلمته الصبر والحكمة . وهاكم أبياتا من نظمه :

واشتاقنى عزى كشوقى للمنى
منذ كنت ألقى لاعج اللوعات

قلدت سيف الصبر كى بجرازه
اسطو على محن الزمان العاتى

حتى قطعت به حبـــائل محنتى
وسلكت نهج الرشـــد فى طيـاتى
وانا المقر بما جنيت ، وليس لى
عذر ســـوى أسفى على هفواتى
فلأشكرن شـــدائدا لو لم تكن
ما كنت أدرى زلتى لمـــاتى

□

أدركنى العياء فى مراجعة هــذه القصة المكتوبة بلغـــة « المقامات » ، ذات الكناية والسجع والتطويل ، غير أن مطالعتها ومطالعة أمثالها تتحتم على الباحث عن مصـــدر التطور ، وهذا الفن بارقة للفن القصصى الحديث عندنا ، ذلك الفن الذى ما زال فى لغتنا جنينا ولم يبلغ قط عنــد العرب طور النضج والقوة

تاريخ الفن القصصى عند العرب يتلخص فى ســـطور وجيزة . فقد نشأ فى القرن الاول للهجرة مســـتندا الى تاريخ الجاهلية ، وظل فى نمو يقتبس من التـــاريخ ومن الخيال معا حتى القرن الرابع . فجاء بتلك القصص أمثال « الجمهرة » و « عنترة » و « بكر وتغلب » و « شيبان وكسرى أنوشروان » ، وغيرها من قصص الغـرام مثـل مجنون ليلى وجميل بثينة ، وما الى ذلك من عديد القصص التى اندمجت بعدئذ فى كتاب « ألف ليلة وليلة »

وقد ألف العرب كتبا لا أصل لها فى الواقع أنما استمدت موضوعها من العلم والخيال والحكمة جميعا . وربما كان أنفس تلك الكتب « أسرار الحكمة المشرقية » الذى روى

ابن طفيل الاندلسي انه لخصه عن كتاب كبير من وضع الرئيس ابن سينا حيث هذا الحكيم صور نشأة الانسان والمع الى نظرية التطور

أما كتاب « ألف ليلة وليلة » فهو فارسي الاصل . وقد وضع أصله في القرن الرابع فتناولته ايادي النساخ بالاضافة والتحريف فكان كل منهم يزيد عليه وينقص فيه ما شاء ، وذلك حتى القرن العاشر

ووقف الفن القصصي بجمود اللغة مدة ثلاثة قرون . فحكاية عائشة بعيوبها ورواسبها تجربة أولى في النزعة المتجددة ، لا سيما فيما يختص بالادب النسائي . اذ لا علم لي بامرأة عربية اللغة وضعت قصة تامة قبل عائشة . فهي بتجربتها هذه من رواد المنهج الجديد

▭

والرواية بعيوبها ذات مغزى اخلاقي . لأن واضعتها جعلت سوء تربية الممدوح وعجزه عن تمييز الصديق من العدو منشأ مصائبه . فقد رأى عدواً في من يحسن ارشاده ، ويعلمه كبح أهوائه ، وينبهه الى واجباته ومسؤولياته . وحسب صديقاً من حفز طيشه وغروره ، وملق منه الزهو والعجرفة ، وشجعه على العبث بكرامة الناس وكرامته الشخصية . فعوقب بنتائج ضلاله . ولكنه يوم ثاب واعترف بخطئه ، بعد أن أتمت المحن صقله وهيأته لمنصبه ، عادت اليه حقوقه ومسراته وحقق جميع رغباته . ومن ثم اسم « نتائج الاحوال »

أما ان الحياة تتصرف معنا ، بني الانسان ، على هذه

الكيفية فقد يحدث أحيانا ، ولكن نقيضه قد يحدث أيضا. قد يتفق أن يعلو صوت الحق ، وينتصر الصلاح ، فيظفر المرء بما هو له فى حكم الطبيعة والقانون والكفاءة ، وقد يثاب المرء عن الخير خيرا ، وعن التضحية كرامة . ولكن كم ذا يفوز الشر ، ويغلب الظلم والخداع ! كم ذا يجار على صاحب الحق فى جميع القوانين البديهية والمشروعة ! وكم يتألب الناس على سحقه واهلاكه ، وما له من ذنب سوى الاخلاص والتفادى !

وما كان أعدل الدنيا وأنصف الدهر ، لو عومل كل بما يأتيه ، وكان حقا من نوع العمل

على أنه لا مندوحة لنا عن الاخذ بالمبادىء الاخلاقية ونشرها . ولا بد من تلقين النشء دروس الصدق والاستقامة والصلاح مهما عصفت حولها الشرور والاكاذيب والمفاسد ، لانه ينطبق على المبادىء الاخلاقية السامية ما قاله قولة الجاحد فى الالوهية : « لو لم يكن الله موجودا لوجب أن نخترعه ! »

أجل ، يجب أن نخترع الاخلاق السامية لو لم تكن موجودة . لانها مع المواهب الفكرية والذهنية ، انما هى لباب الفضل فى الانسانية ، وهى التى لا يتغلب عليها مذهب سياسى ولا تدك قواعدها ثورة اجتماعية ، فعلى من يستطيع تأييدها ونشرها أن يفعل ، ليذكرنا على الدوام بأن الدنيا ذخيرة من أنفس ذخائر المثل الاعلى الذى لا يقتصر على جيل أو على فرد ، بل تتعاون الجماعات والدهور على تمثيله وتحقيقه

مرآة التأمل

الشائع أن « باحثة البادية » كانت أول مصرية عالجت الموضوعات الاجتماعية ، وقد سبق أن أيدت هذه الفكرة قبل الاطلاع على نثر التيمورية . فأستدرك اليوم لأسجل الأسبقية لعائشة التى كتبت فى هذه الموضوعات فى صحف عصرها وفى« مرآة التأمل فى الامور » ، وهذه رسالة وجيزة فى ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخ يوقتها . الا أن كاتبتها ختمتها (على طريقة ذلك العهد) بامتداح لسمو الخديو السابق ، عباس حلمى باشا ، فقد نشرت اذن بعد توليته ، أى بعد ١٨٩٢ ، وفى السنوات العشر الاخيرة من حياة التيمورية

لغة هذه الرسالة ككل ما نثرت عائشة ، هى لغة المقامات ذات السجع والتطويل ، وهى تستهلها بالشكوى وتفكر « لعلى أرى لسماء الصفو هلالا ولعقد الأزمة انحلالا . . » ويظهر انها عثرت على « انحلال لعقد الأزمة » أو ما يشبه ذلك ، لانها « فناداني زعيم الجسارة هلمى الى مقصورة السلامة ، ولا تحذرى الانتقاد والملامة ، وعليك بايضاح الدعوى ... »

وهنا قامت و « زعيم الجسارة » ذاك ــ ولعله صديق خيالى ــ بتخاطب حفل بالتفخيم المسجع شغل صفحتين

اثنتين . فوصلنا أخيرا فى أول الصفحة الرابعة الى «ايضاح الدعوى» . وما هى ســـوى انقلاب الادوار بين الرجال والنساء ، وتسرب الفساد الى داخل الاسرة . وتفصيل ذلك عندها أن جماعة من الشبان « غرهم الله بالغرور حتى أن كل انســـان هم بالاقتران من وضيع ورفيع وخامل ونبيه ، كان كل بحثه عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تمتلكه ربات الجمال « ... ويريح فكره من الاتعـــاب ويستغنى عن الجهد فى الاكتساب ، ويسلم الزمام للهوى »، مكتفيا « بتلك الثروة المستعارة ، وما يدرى بانه واقع فى حبائل الخسارة . فتحتاط به أقرانه » . « ويقوم جيش المداهنين بين يديه ... »

« ويظل الزوج بين لهو وتبذير حتى ينفذ من يده الدينار والدرهم ، واذ يعود الى البيت تقابله الزوجة بالســـخط والنفور ، ولا يلبث أن ينتقل النفوذ والسيطرة اليها ، لان الزوج عاجز الا عن القصف والتبذير . « وحق الزوجية لايتم الا اذا كان كل واحد منهما يرعى الآخر فيما له وعليه. فعلى الزوج أن يقوم بكل حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعته والانقياد لأمره » . فاذا انقلب الرأس عقبـــا فكيف تستقيم الامور ؟ وكيف « لا تلقى المرأة وشاح الحذر وترمى برقع الحياء » ؟

أتكون الزوجة صابرة كتوما ، دفعا للشـــماتة وحذرا من ذيوع الفضيحة ، « فدفنت هــذا الويل بجدث قلبها الحزين الولهان » ؟ الا أن الكتمان لا يداوى علة ، والتجلد لا يفثأ غلة ، بل تجدب فى نفســـها مادة الحياة و « بدلت

القصور بالقبور » ! اذن فالبشرى للزوج الذى لا يرثى ليتم الاطفـــال ، « بل يأخذ من الميراث ما لقى وأبقى ويجعله صداقا لمن يلقيها فى أكفه الشقاء »

أم تكون المرأة سليطة اللسان واذ تضيق بالحياة ذرعا تعمد الى اللوم والمشاجرة ؟ اذن تبدأ حياة هى الجحيم ، اذ لا مقدرة للرجل على زجرها واسكاتها . فيهجر بيته الى الحوانيت والحانات ، « واذا أتى المنزل نام فى الحال خوفا من المرافعة فى القيل والقال »

فكيف تسكت النساء على ضياع شبابهن ونضـــارتهن وأموالهن وآمالهن فى السعادة والهناء ؟ ان الحزن والاسى ليلهب قلوبهن! فتمضى الواحدة منهن الى الجارات مستجيرة من عذابها وكربها . فاذا هى وقعت على امرأة فاضلة تهون عليها الامر صمتت لحين استئناف الأزمة الجديدة . أما اذا ساقها سوء الطالع الى تلك الدور التى تبدل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية، فهناك تغريها من سفلت أخلاقها فتستسلم المرأة وتخرج عن جادة الحشمة . عندئذ يغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد . ولكن كيف تعبأ المرأة به وبكرامته وهو لم يعرف لنفسه واجبات ولم يقف شروده عند حد ؟

هذا منشأ الشقاء على ما يبدو للتيمورية . لذلك ناشدت الرجال فى آخر الرسالة أن يصـــغوا اليها ، ورجت منهم « أن لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تقيســـوه بأقوال النساء السخيفة »

وقد لبى الرجال هذه الدعوة ، بداهة أو اختيـــارا . فالنقد الاجتماعى الذى سيعالجه قاسم أمين بحصـــافة

ولوذعية ، قد سبقته التيمورية بهذه الدعوة الى الاصلاح . لان الكتاب الذى وضعه قاسم أمين بالفرنسية ردا على الدوق داركور صدر سنة ١٨٩٤ م وعقليته لم تتفتق فيه عن تلك الثورة النبيلة الكامنة التي شبت فى كتابيه « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » . وقد صدر الكتاب الاول سنة ١٨٩٨ م وصدر الآخر فى ١٩٠٠ م

لا تصلح العائلات الا بتربية البنات

يقول ابن أخي الشاعرة ، الاستاذ محمود تيمور ، ان التيمورية نشرت مقالات فى جريدة « المؤيد » . وارجح ان خير تلك المقالات ادرجتها زينب فواز فى كتابها « الدر المنثور » وقالت انها اقتبستها عن جريدة « الآداب » الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦ الهجرية ، اى سنة ١٨٨٨ الميلادية ، قبل أن يكتب قاسم امين فى هذا الموضوع باثنتى عشرة سنة تقريبا

ارجح أن هذه خير مقالاتها لان عائشة كانت وزينب فواز على اتصال وائتلاف . وقد ترجمت زينت لعائشة فى حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة بما فيها نص مراسلتها ووردة اليازجي نظما ونثرا . كما انها صدرت كتاب « الدر المنثور » بخطاب من عائشة كله ثناء وتقريظ ، على طريقة يومها ، ولما ادرجت هذا المقال دون سواه فأكبر الظن انها فعلت باشارة التيمورية ، أو انها فضلته على غيره نظرا لمحتوياته

انه لأثر نفيس حقا ، لانه بكر فى لمس موضوع خطير . وخير ما تنتهى اليه مباحثنا اليوم ليس بأصدق نظرا ، ولا

بأصوب حكما مما جاءت به عائشة منذ ٣٧ عاما (١)

عنوان هـذا المقال هو « لا تصلح العـائلات الا بتربية البنات » : وكما انها فى « مرآة التأمل فى الأمور » تجعـل منشأ الشقاء فى بحث الرجـل عن الثروة ليسىء بعـدئذ التصرف بها فيهدم بيته بيده ، فهى فى هذا المقال تلوم المرأة على أسرافها فى الزينة دون انتباه الى واجباتها ، وترى فى ذلك مبعث الخلل والفسـاد ، وتعجب « من مدنية تسـغف بتزيين فتياتها بحلى مستعار ، وتستعين على اظهار جمالهن بزخرف المعادن والأحجار ، وتتخيل أنها زادتهن بسطة فى الحسن والدلال ، والحال انها ألقت تلك الأحداث فى أخدود الوبال ، لأنه لا يعد عليهن من تلك المستعارات الا العجب والغرور المؤدى بهن الى ساحات المباهاة والفجور . وذلك

---

(١) نود أن ننبه هنا الى أن المرحوم رفاعة رافع الطهطاوى هو أول من دعا الى نهضة المرأة المصرية والى تعليم البنات وتثقيفهن اسوة بالبنين وقد وضع كتابا سنة ١٨٧٢ لتثقيف البنات والبنين سماه (المرشد الامين للبنات والبنين) . ودعا فى هذا الكتاب الى وجوب تعليم البنات واعدادهن عن طريق التربية والتعليم . وقال فى ذلك : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الازواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ، ويصلحن لمشاركة الرجال فى الكلام والراى ، ولتتمكن المراة عند اقتضاء الحال ان تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها . فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء . فالعمل يصون المراة عمـا لايليق ويقربها من الفضيلة » . وبذا يكون رفاعة الطهطاوى قد سبق التيمورية وقاسم امين الى هذه الدعوة (رئيس التحرير)

لكف بصيرتهن عن الادراك وعدم علمهن نتائج الاحوال وعواقب الأمور (١)

□

موضوع زينة المرأة قد يشغل كتابا او كتبا لمن يريد ان يتناوله من وجهه المهم دون الاكتفاء بالارشاد ، او بالتهكم، أو النقد الجارح ، لذلك ألقى هنا بكلمة فقط

اعتقد ان من طبيعة وجود المرأة ان تكون جميلة ، كما ان من طبيعة وجود النوع الانسانى فى ان يكون ذكيا نشيطا . وكما يصقل المرء ذكاءه بالمعرفة والتجربة والاطلاع ، فكذلك تصقل المرأة جمالها بالزينة والاناقة والكياسة . الفتاة معدة لتكون ربة منزل ، وام عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة، وليست معدة لتنزوى فى حياة الزهد والرهبانية . فيجب ان تنشأ على ما أعدت له من ابهاج المنازل وتزيين المجتمعات، وبث اللطف والأنس فى كل ناحية تحل فيه . ولما كان عليها ان تبهج برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها ، فعليها كذلك ان تروق النظر بحسن هندامها . فالعيب اذن ليس فى ميل المرأة (والرجل كذلك) الى الزينة ، ولكن فى المغالاة بارضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع لقواعد الذوق السليم فى التصرف بمظهره . والغلو عيب فى كل أمر ، وسقم الذوق نكبة دائمة

---

(١) للمؤلفة : فلما ناقشت أراء عائشة فى هذا الدرس لشعرها ونثرها وانما اقتصرت على ابراز أوجه خواطرها . ولولا ذلك لاتسع المجال للاسهاب فيما يشقى العائلات ويسعدها . ولئن علقت احيانا على نظرية منهـا فلتعذر السكوت على مايحتمله ذلك من ابهام وتأويل

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها فعلى الفتاة ان تتعودها منذ نعومة أظفارها . بعكس ما تجرى عليه أكثر المدارس ، ان لم نقل كلها ، فى تجريد البنات من كل حلية وافهامهن ان الزينة لا تجوز الا بعد الخروج من المدرسة ، فينلن حريتهن من هذه الوجهة متأخرات ، أى ان الحرية فى الزينة تفاجئهن مفاجأة بدلا من ان يتعودنها شيئا فشيئا ، فيكون شأنهن عندئذ شأن من وجب عليه ان يربى نفسه تربية جديدة تناقض تربيته السابقة من كل وجه . ومن هنا عدم التوازن والاتزان ، وعدم وضع الشيء فى مكانه ، واغراق فى اسراف الوقت والدرهم ، والغلو فى الأخذ بأهمية الزينة . ومن هنا زعم أكثر النساء بأنهن لا يتجملن أصلا . والواقع ان أكثرهن زعما وتنصلا أوفرهن تبرجا وتجملا ، الا اللائى يأبى التجمل ان يتناسب و « طرازهن » الطبيعى وشكلهن

ولو شبت جميع الفتيات على اعتبار الزينة المعتدلة المعقولة الفنية جزءا من ترتيب هندامهن على ما يناسب شكلهن وقالبهن بحكم الذوق والزى السائر ، لما انفقن فى سبيل ذلك وقتا طويلا ولا بدا ذلك فيهن تكلفا وعملا مستثنى ، بل لاندمج فى عاداتهن وصار طبيعيا . واذا لما رأينا المرأة فى كثير من العائلات الشرقية بأثواب رثة قذرة بين زوجها وأولادها ، بلا لياقة ولا حاسة فنية . حتى اذا استقبلت ضيوفا أو خرجت للزيارات ارتدت أفخر الأثواب وازدانت بأنفس الحلى ، فبدت فى كل أولئك غريبة بطيئة الحركات مرتبكة السكنات ، وكأن كل جارحة فيها تنطق بأنها «مطقمة بزى الآحاد والاعياد» على نحو قول الفرنسيين

لو درجت المراة منذ الصغر على الزينة المعقولة لأدركت ان هذه الزينة جزء من جمالها وانها تعالجها لنفسها لا للناس ، ولامتدت عنايتها تلك الى منزلها فلا تقصر ترتيبه وتزيينه على يوم الاستقبال فى الغرف والردهات التى يراها الزائرون والزائرات ، فى حين هى تبقيه فى سائر الأيام على أسوأ ما يكون من التشويش والارتباك . ولامتدت تلك الاناقة غير المصطنعة الى افكارها ، الى آرائها، الى عاداتها الى نظرتها فى الحياة . فالمزية الواحدة، حتى وان كانت خارجية، تستطيع ان تتناول نواحي شتى ، كما ان العيب الواحد قد يهدم حياة بأسرها . ومواعظ المصلحين لم تجد نفعا على طول الأجيال . لأن حب الجمال فى الانسان أعرق من ان يخنقه الارشاد ، وليت الارشاد ينقلب تحويلا الى الأخذ بالوسائل المغرية بتوقيت الزينة وتنظيمها

▭

طويلة حاشيتى هذه بعد كلام التيمورية ، ولكنها غير دخيلة ولا هى تافهة . فمن الجميل ان يطمع فى المزيد ، ومن حق غير الجميل ان يقلل من دمامته ، ويسترها ، محاولا اظهارها بالمظهر غير المستنكر

ورغم انكار الغلو فى الزينة الفارغة ، فان التيمورية ترى ان أعنف العتب يقع على الرجل ــ وباحثة البادية ستقول هذا القول فيما بعد ــ لأنه القوى وفى وسعه النهوض بالمراة الى حيث تتسع مداركها فتصبح له شريكة . فاذا بها تهتف :

« فيا رجال أوطاننا ! لم تركتموهن سدى ؟ » « وهن بين

اناملكم اطوع من قلم؟ » ، « فعلام ترفعون أكف الحيرة عند الحاجة كالضال المعنى ، وقد سخرتم بأمرهن وازدريتم باشتراكهن معكم فى الأعمال واستحسنتم انفرادكم فى كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود » ؟

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل فى الأعمال ، ولم هذا الاشتراك ؟ لأنه طبيعى « من حكم بارى النسمات وموجد المخلوقات » ولأنه الأساس الاصلى « لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين . ولو أمكن الانفراد لخص عالم الأسرار أحدهما دون الآخر ، وهو الأفضل ، ولم يفقره الى ما هو دونه . فكان التأمل فى هيولى هذا الكون موجبا على الهيئة الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيبها لينالوا بذلك أرفع مجد وأهنأ جد ، ولتعتاض الفتيات عن قلق الجهل براحة العرفان » . أى ليقمن بواجبات التدبير فى منازلهن وفى شؤونهن ، ويأتين بالمطلوب من عطف ووقاية وحكمة نحو نفوسهن وذويهن ، دون شعوذة ولا شرود عن الصواب

انها تقول بلغتها بالمساواة بين الرجل والمرأة ، تقول بذلك تصريحا لا تلميحا : « اذ لو امكن الانفراد للرجل لخصه الله بالوجود دون المرأة ، فهما ضروريان كل منهما للآخر ، موجودان معا تحت شمس واحدة واحكام واحدة ليأتى كل بقسطه من واجبات متعادلة »

لقد قالت بهذا فى الشرق ، ورأت أن يتساوى الرجل والمرأة وان يشتركا فى الاعمال ، وهى محجوبة رهن جدران الخدر .. ومتى ؟ فى حين كان هذا يعد بدعة فى أوروبا ، اذ لا يفوتنا ان لفظة « ذكر » لم يتفق على حذفها من قوانين

انجلترا والاستعاضة عنها بلفظة « رجل » أو « احد » الا منذ سنة ١٨٥٠ م . وكان ذلك مقدمة لتحرير المرأة عندهم من حيث ادخالها فى الانسانية

▭

تنطوى التربية على فروض كثيرة وتحتمل شتى الايضاحات والتاويلات . وعليها تحت قلم عائشة مزيد من الابهام والمرونة . الا انها بقولها « تاديب البنات وتهذيب العائلات » يغلب عليها وجوب تنشئة الفتاة لتكون أهلا للسهر على مصلحة الاسرة والقيام بالمطلوب فى سبيل تقدمها وراحتها وهنائها . لأن فى حجرها تشب الاجيال ومن كان مهيأ لاعداد الصلاح والعظماء والنبلاء وجب ان يكون على عظمة ونبل وصلاح

والمساواة ؟ هى معنى عارض فى كلام عائشة ، برغم اهميته بالنسبة للوقت الذى ورد فيه . اما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وذاع معناها لدى من يفهمه ولدى من يزعم انه يفهمه . ولكن اكثرية الرجال ، حتى المتعلم الراقى منهم ، تكهربهم هذه الكلمة وتثير سخطهم وتهكمهم ، وهم لا يقرون منها ما يقرون الا بشروط من الحصر والتقييد

وأرى ان فى انكار المساواة على المرأة تكريما لها ، أية كانت الصيغة واللهجة المعبر بها عن ذلك الانكار ، لعل الرجل الذى يجهده كفاح الحياة لا يريد ذلك الكفاح للمرأة ، طامعا فى ادخارها للراحة والهناء والرخاء والمواساة . بل هو دليل على محبته المتلونة بشتى الألوان، وعلى احترامه ولو مسخه احيانا بشكل الاستخفاف . أذلك الانكار محض أنانية كما

يزعمون ؟ وماذا ترى لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خالية من الانانية ؟ وما أحب أنانيـــة أحبابنا الينـــا ! أما الأنانية المقوتة من القريب والغريب على السواء فهى الانانية التى تتورم على حسابنا ، ولا تجعل لحقوقنا فى احصائها قدرا وشأنا . ومن هنا منشأ كل ثورة ، وكل فتنة ، وكل ظلم

ان المرأة التى تنال عوضا عن تأدية واجباتها عطفا وحبا ، لا تثور ولا تشكو حتى ولو عسرتها المسؤولية ، وانما هى المرأة المظلومة من ناحية العواطف ومن ناحية المعاملة ، التى تضج وتلج . يطلبون منها الف ألف واجب ، ويقيدونها بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف الف وقر ، ومقابل ذلك ، ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . مقابل ذلك أحيانا ، لوم وتفنيد ، اذن لمــاذا تحتمل ؟ وفى سبيل أية غاية هى تحيا ؟ لقد سن لها المجتمع ، دون الرجل قانونا للعواطف والافكار والأعمال ، وركز لها ضمن حدود الاسرة هناء القلب ومسرات الحنان . ولم تقدر تلك القوانين ان ما فرضته لها من رضى قد لا يتحقق ، فى حين تظل المراة مرغمة على الواجبات الباهظة وتظل تعذبها لجاجـــة العيش ووخز الحاجة . وليست كل اسرة لتقـــوم بتلك الحاجـــة المحسوسة نحو أفرادها ، ولا كل رجل ، زوجا كان أو ابا ، أو أخا ، ليعلم ويدرك ان الرجولة لا تقـــوم بترأس العـــائلة وبالأمر والنهى ، بل بتأدية واجبات ييسرها له المجتمع قدر الامكان ويجعلها على المرأة اعسر ما تكون

قيود واستدراكات وحدود من كل جهة فى حياة المراة . وعلى هذه المخلوقة الضعيفة ان تذعن لها جميعا وان ترى فيها الفضل والبر والكمال ، وان تأتى بما لا يخجل ان يهمله

الرجل شرط ان تظل ضمن حدود الفضل والبر والكمال .
وللرجل كل الحرية فى الحلال والحرام ، فى الممنوع وفى الجائز .
أيمكن ان يسكت على هذا الجور قلب يحس وينبض ؟ انه ليتأكله الجوى ويكظم عذابه الى حين ، ولكن لا بد ان يتفجر عن الأسى يوما ، لا سيما اذا رأى ان لا منفعة له من جهاده وان خيوط حياته تبلى عبثا ليجنى ثمرة تعبه من ليس لذلك أهلا

واها ، ايها الرجال الفضلاء ، انتم الذين تسعدون النساء العائشات تحت رعايتكم ، لو علمتم كل ما تكنه الدعوة الى المساواة من نصال مغمدة فى القلوب !

لو علمتم ذلك لعملتم – ليس على نقض معانى المساواة كما تفعلون أحيانا – بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحة لجميع أفراد المجتمع



فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ــ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ــ صاحب المكتبة العصرية ــ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ــ ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ــ مكتبة المؤيد ــ البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
7, Bishopsthorpe Road, Sydenham,
London S.E. 26, England.

فرنسا : Etablissements Helbaoui,
29, Rue Saint-Augustin,
PARIS-2°, FRANCE.

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

يمتاز هذا الكتاب بأن الشاعرة التى
يتحدث عنها فى هذه الدراسة النفيسة هى
الطليعة الاولى لأديبات العرب فى تاريخ الشرق
الحديث ، وان مؤلفته هى الآنسة مى النابغة
الاولى فى القرن العشرين التى ساهمت فى كثير
من الميادين الادبية والنسائية والاجتماعية
بقلمها البليغ على صفحات الصحف ، وصوتها
الفصيح على منابر الخطابة الرائعة

وهى فى هذه الدراسة تقدم لنا عائشة
تيمور ، شخصية فذة بين بنات جيلها ، بل
كطليعة لامعة لنهضة المرأة فى الشرق العربى فى
اواخر القرن التاسع عشر على
الظروف العصيبة التى كانت محيطة ب
الحين . ولقد درست نشأتها وبيئاتها
والادبية ، كما درست العصر الذى ع
وحللته تحليلا دقيقا ، كما حللت شعر
ممتزجا بالدراسة النفسية للشاعرة
يدور فى خاطرها من أحلام وآمال و
ولقد أتاحت المؤلفة لكل قارىء أن
هذه الشاعرة النابغة فى هذا الكتاب
وقتا ممتعا للفكر والنفس والوجدان